شيخ الشام

جمال الدين القاسمي

بقلم

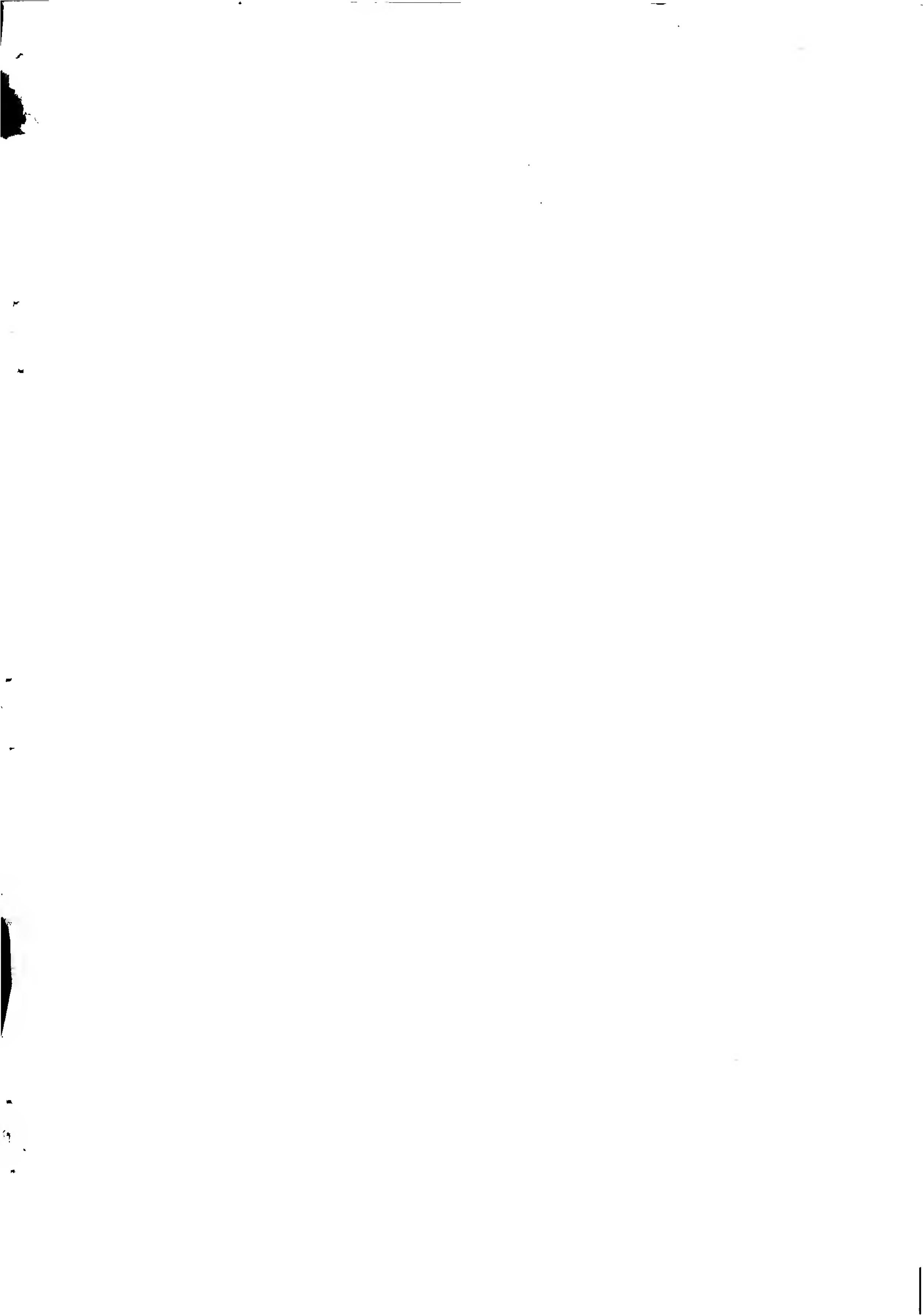
محمود مهدي الإستانبولي

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيا: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيا: اسلامي

شيخ الشام

جمال الدين القاسمي



مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله **وبعد**

فإن الأستاذ محمود مهدي الاستانبولي، قد ألّف هذا الكتاب عن شيخ السلفية في بلاد الشام العلامة جمال الدين القاسمي منذ ثلاثين سنة، غير أن الظروف لم تساعد على طباعته.

ثم علمت أنه سلم نسخته إلى الأستاذ الفاضل ظافر القاسمي ابن الشيخ جمال الدين، وكانت للأستاذ ظافر ملاحظات واعتراضات واحتجز النسخة لديه، ثم ألّف الأستاذ ظافر كتاباً قيمًا عن حياة والده سمّاه «جمال الدين القاسمي».

وبعد ذلك أعاد الأستاذ ظافر الكتاب، للأستاذ الاستانبولي، بعد أن رغب إليّ عدم طباعته. وقد سلمني الأستاذ ظافر الكتاب، فأعدت النظر فيه وأدخلت بعض التعديلات على أكثر المواطن التي كانت محل نظر عند الأستاذ ظافر وأكثرها شكلية. ثم أخبرته بما فعلت فشكر صنيعي، وعمل الأستاذ الاستانبولي.

والواقع أن كتاب الأستاذ الاستانبولي يختلف عن كتاب الأستاذ ظافر اختلافاً كبيراً. فالأستاذ ظافر كتب بأسلوب الولد المحب السارد للوقائع، والمقدم للوثائق. وأما الأستاذ الاستانبولي فكتب بروح صاحب الدعوة المتحرك، والداعية الراغب في استفادة الخلف من أعمال السلف.

ولذلك رأيت أن الكتابين يكمل بعضهما بعضاً، ولا تضارب بينهما لذلك قدمت كتاب الأستاذ الاستانبولي للطباعة، راجياً الله سبحانه أن ينفع به وأن يلهم الأمة الاستفادة من أعمال وأقوال وجهود المصلحين السابقين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة محرم ١٤٠٤ — زهير الشاويش



الإهداء

إلى دعاة الإصلاح الديني الداعين إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة الذين قصدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:

«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»[1].

رواه البخاري ومسلم

إلى الفرقة الناجية التي أخبر عنها سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه بقوله:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي»[2].

أهدي هذا الكتاب ليكون نبراساً ينير لهم الطريق ويدفعهم إلى الصبر والثبات والتضحية في سبيل تجديد معاني الإسلام والعودة إلى صفائه العظيم في عصره الأول، ولا يضيرهم قلة العدد وفقدان الأعوان، قال عليه السلام: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء. قيل ما الغرباء؟ قال: الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي»[3].

إذا كان عمل جمال الدين القاسمي للإصلاح وتجديد علومه صغيراً في نفسه، فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه، فما القول إذا كان كبيراً في الواقع، وقد عظم المطلوب وقلّ المساعد!

---

(١) رواه البخاري ومسلم قال ابن المدني في الطائفة المذكورة في الحديث: «هم أهل الحديث الذين يتعاهدون مذهب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويذبون عن العلم، لولاهم لأهلك الناس المعتزلة وأهل الرأي» وذكر نحو ذلك أعيان الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وكثير غيرهم. وفي هذا الخبر بشارة على انتصار أهل السنة والحديث على من خالفهم.

(٢) انظر «صحيح الجامع الصغير» ١٠٩٣، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» ١٤٩٢، و«مشكاة المصابيح» ١٧١ وكلها من مطبوعات المكتب الإسلامي.

(٣) انظر «مشكاة المصابيح» ١٥٩، ١٧٠.

وإليك بعض ما قاله العلماء فيه:

إذا كان عمل جمال الدين القاسمي للإصلاح وتجديد علومه صغيراً في نفسه، فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه، فما القول إذا كان كبيراً في الواقع، وقد عظم المطلوب وقلّ المساعد!

لقد أحيا السنة بالعلم والعمل والتعليم والتهذيب والتأليف و(كان) أحد حلقات الإتصال بين هدي السلف والإرتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن.

الإمام المصلح محمد رشيد رضا المنار م ١٧ ص ٥٥٨

مع ما كان جمال الدين القاسمي عليه من الفضل الوافر، والأدب الباهر، والورع الظاهر، والنسب الطاهر، والذّب عن الشرع المبين وقوة الإيمان واليقين، ومناضلة الجامدين والملحدين، وإنه حسبما اعترف له الموافق والمخالف:

أحيا به الله الشريعة والهدى — وأقام فيه شعائر الإسلام
حكم على أهل العقول يبثها — منعوتة الأوضاع والأحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه — سحر العقول وحيرة الأفهام

من رسالة تعزية بعث بها إلى صديقه الإمام محمد رشيد رضا

العلامة محمود شكري الألوسي

لا تحضرني عبارة تشعر بمبلغ الحزن الذي نال دمشق بفقد من كان عالمها الكبير وأستاذها الفاضل النحرير جمال الدين القاسمي، فقد كان أحد أفراد هذا العصر المعدودين في التحقيق بأسرار الشريعة، وهو، لا مراء، عالم الكتاب والسنة بلا مدافع، خُلق ليعمل على بعث الدين المبين خالياً من حشو المتأخرين الجامدين، وتضليل المخرفين والمبطلين.

العلامة محمد كرد علي

صحيفة الإصلاح

وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه حناجرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ:

جمال الدين القاسمي

كاتب الشرق، عطوفة أمير البيان الأمير شكيب إرسلان

جنيف رجب الفرد ١٣٥٣

في مقدمة لكتاب قواعد التحديث

لقي جمال الدين القاسمي ما لقيه أسلافه وأمثاله النوابغ من اضطهاد المضطهدين ما تنوء به العصبة أولو القوة، فكافح وناضل وصبر وصابر ولم تأخذه في الله لومة لائم، ولم تثنه همته عما خط لنفسه من النهج القديم والصراط المستقيم.

وما زال يجد ويجتهد وينقد ويؤلف ويعلم ويدرس ويفقه ويهذب ويعظ وينبه حتى استقر الحق لأهله وعرف الفضل ذووه ونال شهرة في وقت قصير ما لم ينله كثير، وبدأ القوم يعرفون حقه ويذكرون له مواقفه.

ولو كانت البلاد السورية تقدر رجالها حق قدرهم لكان تأثرها بفقد هذا العبقري الهمام عظيماً كما قيل:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

أحمد عمر المحمصاني

جمال الدين القاسمي رابع أربعة لم ينجب الشرق غيرهم في القرن الرابع عشر. وما عليَّ إذا قلت معتقدي إن كنت على بينة فيما أقول. ولم أبالِ بدندنة منكر. وإنها لشنشنة شرقي تعودها، ولها علم وعمل وهي برهانه في جدله وحجته في مناظراته.

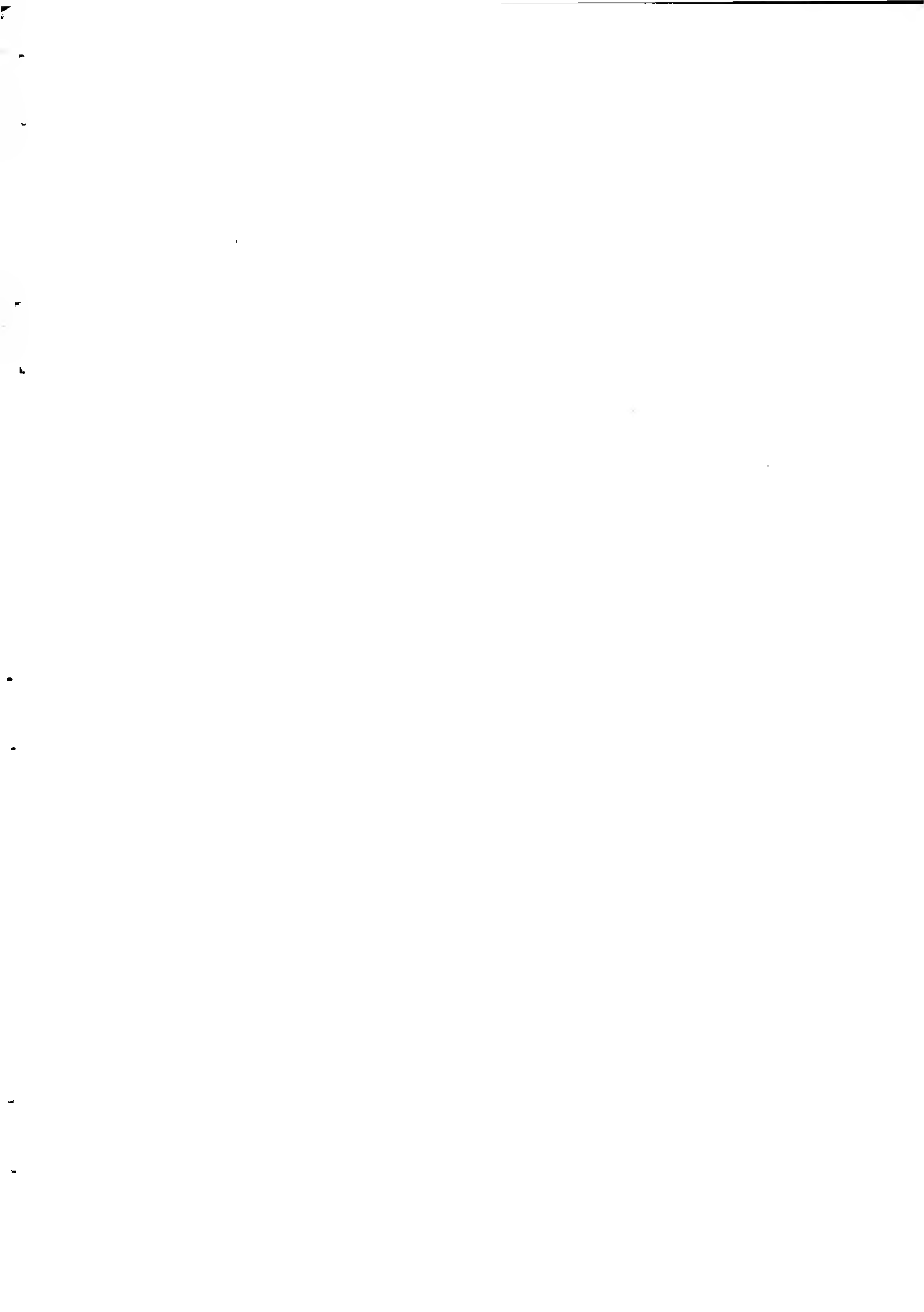
جميل العظم

أقاسمكم الأسف والغم على مصيبتنا ومصيبة الإسلام بفقيد العلم والإصلاح السيد جمال الدين القاسمي رحمه الله برحمته الواسعة.

واحسرتاه على عدم اجتماعي به، وانتفاعي بملازمته. أسأل الله تعالى أن ينفعني ـ والأمة الإسلامية ـ بآثاره النافعة.

محمد نصيف

شريف جدة ومحسنها وعالمها



المقــدمــة

طغت على المسلمين بعد العصور الذهبية للإسلام المتألق والصافي من الأفكار الدخيلة، موجة عارمة من الخرافات والبدع أضاعت من رونق الدين، وأقللت من جماله، سببها: بعد المسلمين عن المنبعين الفياضين الوحيدين للإسلام وهما القرآن والسنة الصحيحة، وتقليد بعض طقوس وضلالات الأديان المحرفة، والعقائد الفاسدة، واتباع رجال ليسوا معصومين، اعتقدوا بقدسيتهم وعصمتهم، وهم ـ رضي الله عنهم ـ أول من تبرأ منهم!

وقد كان لهذا الجمود أثره الضار في نفور بعض الشباب من الإسلام، كما كان من عواقبه أيضاً عجز نصوص بعض الفقهاء عن مسايرة حاجات العصر وتحقيق سعادة الناس، مما دفع حكام البلاد على هجر مجلة الأحكام الشرعية والارتماء في أحضان القوانين الأجنبية. وهذا مما اتفقت عليه آراء كل من ابتلى بالرجوع إلَى الأحكام.. وحتى المتعصبين للمذاهب منهم.

وقد نتج عن هذا الإنقلاب الهدام في حال المسلمين وهن في نفوسهم وضعف في قوتهم وقتل لمعنوياتهم جعلهم يتشاغلون عن مبادىء دينهم العظيم بسخافات وأوهام سببت انحلالهم وطمع المستعمرين فيهم، واستيلاءهم على أوطانهم.

هب المصلحون بثورتهم وانتفاضتهم، ينادون بالإصلاح الديني، والرجوع إلى الإسلام الصحيح، فلاقوا المعارضة الشديدة من الجامدين والمقلدين وصبروا على أذاهم، مستبسلين في سبيل دعوتهم ومنتظرين نصر الله، فسجن زعيم هذه الحركة الكبرى التي سميت بالسلفية العالم الكبير أبو العباس أحمد ابن تيمية ـ شيخ الإسلام ـ ومات في سجن القلعة وخرجت دمشق كلها في جنازته!![1].

ولاقى ابن القيم تلميذه، ومحمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا المتأثرين بمدرسته، أذى كثيراً من المقلدين الذين كانوا يؤلبون السلطات الجاهلة عليهم، ولا ذنب لهم إلا أنهم كانوا ينادون بتنقية الإسلام مما طرأ عليه من البدع والرجوع به

(١) انظر لتمام ترجمته «الاعلام العلية» للإمام البزار بتحقيق زهير الشاويش، وكتاب «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للعلامة محمد بهجة البيطار وهما من مطبوعات المكتب الإسلامي.

إلى ما كان عليه في عصر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وعصر أصحابه العظام رضوان الله عليهم أجمعين.

لم يعبأ هؤلاء المصلحون بكل هذه المحن وصبروا وصابروا ورابطوا لا يعبؤون بهجمات الخصوم حتى كتب الله للسلفية النصر.

ومن أولئك المصلحين الذين ملأوا الخزانة العربية بمؤلفاتهم الثائرة وأيقظوا العالم الإسلامي بصوتهم الداوي: الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله الذي سنكشف للملأ الستار عن حياته المجهولة الحافلة بجلائل الأعمال وعظائم الأمور التي تبرهن على نفسه القوية وإيمانه الصحيح وحماسته للإصلاح من أجل الإنطلاق من أغلال الجمود التي كبلت العالم الإسلامي، إلى آفاق الحرية والحقيقة والنور.

وأنا لا أدعي أنني أحطت برسم سيرته كلها، فمن أين لمثلي القدرة على تسجيل هذه الحياة الضخمة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، وكانت عظيمة في دراستها، عظيمة في عملها على الرغم من قِصرها ومعاداة الجامدين لها، لا سيما وأن أحداً لم يسبقني إلى كتابة ترجمة مفصلة له، فلم يكن لي من نبع أستقي منه سوى بعض آثاره وتلميذه الأستاذ الفاضل حامد التقي الذي كان لي خير معين فله مني جزيل الشكر.

وإنه لما يؤسف له ألا يتبارى العلماء والمؤرخون إلى اليوم في وضع سيرة مفصلة لعلاّمتنا القاسمي، وقد مضى على وفاته ما يزيد على نصف قرن، فواحسرتاه على مصلحينا في الشرق العربي، إنهم مغبونون أحياءً وأمواتاً!

إن القاسمي كان أمة، وآثاره شاهدة على عظمته، وأعماله دالة على نبوغه، قام بها وحده على قلة الأنصار وفقدان المال وكثرة الخصوم وشغبهم الذين لولاهم لكانت آثاره تربو على الضعف.

جاهد لنصرة دينه وتطهيره من الأوهام والبدع ورواسب عهود الإنحطاط، حتى آخر رمق من حياته، فلم يعرف للراحة طعماً ولا للهدوء معنى. جزاه الله تعالى عن أمته خير ما يجزي المصلحين المخلصين.

محمود مهدي الاستانبولي

ملاحظة

كنت ألفت هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات، ولم يتسن لي طبعه إلا في هذا التاريخ، بهمة السلفي النبيل الأخ الداعية محمد زهير الشاويش وفقه الله لما يحبه ويرضاه وأجزل ثوابه. كما قام جزاه الله كل خير بالنظر في كثير مما فيه، وخرج ماندّ عني من أحاديث.

حياة الرجل

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ - ١٩١٤ م

نشأته ـ نسبه ـ أساتذته وصحبه ـ سيرته ومآثره



نشأة الحكيم ونسبه

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

هو علامة الشام، ونادرة الأيام، والمجدد لعلوم الإسلام، محيي السنة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن، الفقيه الأصولي، المفسر المحدث، الأديب المتفنن، التقي الأواب، الحليم الأواه، العفيف النزيه، صاحب التصانيف الممتعة، والأبحاث المقنعة، صديقنا الصفي، وخلنا الوفي، وأخونا الروحي، قدس الله روحه، ونور ضريحه، وأحسن عزاءنا عنه.

نشأ رحمه الله في بيت من بيوت العلم والدين في دمشق الشام، ولد سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألفاً، وتلقى مبادىء العلوم العربية والشرعية عن والده الشيخ سعيد[١] ابن الشيخ قاسم[٢] الملقب بالحلاق. والقاسمي نسبة إلى الشيخ قاسم هذا. ووالدته علوية يتصل نسبها بنسب الشيخ إبراهيم الدسوقي المشهور، وقد عني القاسمي في آخر عمره بإثبات هذا النسب وكتب له شجرة. وجاء مصر عام ١٣٣١ لشؤون تتعلق بذلك، فسررنا بلقائه، وجدنا ما لا تخلقه الأيام من عهود إخائه وكتبنا له كما أحب كلمات على نسبه[٣].

وكان القاسمي منذ وعى على نفسه يعمل على تهذيبها، ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة ولم يقيد شاردة، فظهرت عليه مخايل النبوغ ولما يبلغ العشرين، فما بالك به وقد نيف على الأربعين وقارب أن يتم العقد الخمسين[٤]؟!

---

(١) هو محمد سعيد القاسمي، المتوفى ١٣١٧، انظر «أعيان دمشق» للشيخ محمد جميل الشطي الصفحة ٣٩٥ طبع المكتب الإسلامي.

(٢) هو قاسم بن صالح المتوفى ١٢٨٤، انظر «أعيان دمشق» الصفحة ٢٢١.

(٣) الإمام محمد رشيد رضا: المنار ج ٧ م ١٧ ص ٥٥٨.

(٤) محمد كرد علي: المقتبس.

أساتذة القاسمي وأصحابه:

لقد تتلمذ الشيخ رحمه الله على شيوخ عصره أمثال الشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار والشيخ محمد الخاني ووالده الشيخ محمد سعيد القاسمي وخال والده الشيخ حسن جبينه المشهور بالدسوقي.

وكان يحضر مجالس الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام[1]،وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه وأخلاقه المرضية ما لم يستفده من غيره.

وصحب الأستاذ الشيخ طاهراً الجزائري، فاستفاد من صحبته علماً بحال العصر، ومعرفة بنوادر الكتب وغرائب المسائل، وصحب العالم المستقل الشيخ سليم البخاري، وأتراباً من خيرة شبان العصر المدنيين كرفيق العظم ومحمد كرد علي وغيرهما وجماعتهم. فكان لصحبة هؤلاء الشيوخ والشبان، وهم خير من أنبتت الشام في هذا الزمان، تأثير عظيم في حياته العلمية من حيث فتحت لاستعداده الفطري، واستقلاله الوهبي، أبواب البحث والتحقيق، وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد، ونبهته إلى حاجة الأمة إلى الإصلاح المدني كحاجتها إلى الإصلاح الديني.

وجاء مصر مع الأستاذ البيطار، على عهد الأستاذ الإمام، فاغتبطا بلقائه واغتبط بلقائهما، وصارت المكاتبة بعد ذلك متصلة بينه وبينهما.

وإنما كان جمال الدين ذلك الرجل بجوهر نفسه، وقوة استعداده، وكم من طالب علم سمع مثل ما سمع، ولقي من الشيوخ والشبان مثل ما لقي، فأنكر كل ما خالف ـ وعلى كل من خالف ـ ما عرف وألف. ولم يهده ذلك إلى طلب علم جديد، ولا إلى مراجعة النظر واستشارة الدليل. فالحق أن الأفراد الذين امتازوا في هذا العصر من أمتنا بالعلم الصحيح والتصدي للإصلاح، إنما امتازوا أولاً بقوة الإستعداد، والميل الفطري إلى الإستقلال. ثم سلوك النظر والإستدلال، فمن كان هكذا، نفعه لقاء أهل الإختصاص، والإطلاع على أحاسن الكتب والأسفار، فيكون في ذلك كالنحلة في الروض، تجتني من ناضر الأزهار ويانع الثمار أطيب ما فيها[2].

ودرس علم الفلك على الشيخ عبد القادر الطنطاوي[3] وقد صرح بذلك في بعض تعليقاته المطبوعة.

---

(١) وقد كان من قبل مثل باقي علماء البلد وهذا ظاهر في كتابه «تحفة البشر..» ثم كتب الله له الخير والسداد.

(٢) الإمام رشيد رضا: المنار ج ٧ م ١٧ ص ٥٥٨.

(٣) عائلة الطنطاوي من بيوت العلم بالشام جاءت من مصر وأشهر من برز منها أستاذنا الجليل العالم الأديب الشيخ علي الطنطاوي ـ حفظه الله ـ.

ولم يكن أغلب هؤلاء العلماء أحراراً في تفكيرهم وبحثهم، بخلاف تلميذهم الذي كان نسيج وحدة وحراً في رأيه، وقد جاءته هذه النزعة من دراسات الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده اللذين تأثر بهما القاسمي كثيراً.

وكان جميع أساتذته من المعجبين به وبنبوغه والمقرين بفضله. يقولون عنه: «إن له مستقبلاً زاهراً».

وقد ذكر القاسمي أنه في يوم شديد البرد كثير الثلوج حضر درس أستاذه الشيخ سليم البيطار على الرغم من سوء الجو وبعد الطريق ووعورته. فلم يجد أحداً سوى الأستاذ، وكان يحضر دروسه الكثيرون. فقال له أستاذه: إنني أنتظرك وحدك لأنني أعتقد أنه لا يأتي في مثل هذا اليوم غيرك حتى ولا جارنا!

سيرته ومآثره:

انفرد جمال الدين بفضائل أثيرة، ومناقب كثيرة، وصبر لصدمات المهاجمين من المتفقهة والقصاص والمخرفين، وله معهم مواقف حافظ فيها على سكينته ووقاره، ولم يتجاوز بهما حد المدافعة، فلم يسمع له فيها قعقعة مراء ولا صليل جدال، فكان جمال الدين في خلقه كجمال الدين في فارس، وصدِّيق حسن خان في الهند والأستاذ الإمام في مصر، لم أر في الرجال من استقام على الطريقة بعد أولئك الثلاثة مثل الجمال القاسمي إلا أن يكون صاحب المنار[1].

غرس بذور الإصلاح في سورية وقام بنهضة عظيمة لم يسبقه إليها أحد من أساتذته ومن أبناء عصره.

وكان القاسمي متصفاً بصفة قل من يثبت عليها وهي: أنه لا يصده صاد ولا يرده راد عما يعزم ويشرع به من الإصلاح.

وكان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح يزداد قوة ونشاطاً ودعاية وكتابة. وهمه الأعظم أن يجمع بين الدين والعلم الصحيح ويثبت تآخيهما.

«ويمكنني أن أقول: إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى، ويشغف به عباد الله سبحانه، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق وجمال القطر الشامي، في غزارة فضله وسعة علمه، وشغوف حسه، وزكاء نفسه وكرم أخلاقه، وشرف منازعه، وجمعه بين الشمائل الباهية، والمعارف

---

(١) جميل العظم.

المتناهية، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل والجهبذ الكامل، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية المتحلية بتلك الشمائل السرية، والعلوم العبقرية لكان ذلك كافياً في إظهار فريقها على سائر البلاد، وإثبات أن أحاديث مجدها موصولة الإسناد. . .

وقد كان للشيخ جمال الدين رحمه الله عدا إحاطته العلمية، معارف لا يساويه فيها أحد من المجتمع الإسلامي عموماً والعربيّ الشاميّ خصوصاً، فقد صح فيه ذلك التعريف الذي عرف بعضهم «العالِم» فقالوا: «هو قبل كل شيء العالم بأحوال عصره ومصره»[1].

اشتهر بحلمه مع مخالفيه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن مع أشد الناس خصومة له، ولا بغضب. شاهده تلميذه مرة يأخذ حقاً له من خصمه حكم له به القاضي، فسلمه حقه أمامه وهو يخاطبه بألفاظ بذيئة لا يليق أن تذكر، فأخذ الغضب التلميذ وانتصر لأستاذه فوجه للخصم كلمات التأنيب، فلامه القاسمي لوماً عظيماً وقال له: أصلحك الله: شخص صعب عليه أداء الحق، ففرج عن نفسه بكلمات لا تليق فاتركه ينفس عن كربه، وما حزني بكلامه، إنما آمل أن أؤجر بصبري على مثله.

كان جواداً سخياً على قلة ذات يده، وقد مات ولم يترك شيئاً يذكر. قال تلميذه: كنت مع زملائي الطلبة قبل تلقي الدرس يومياً نتناول طعام الصباح عنده بما تيسر فخجلت منه يوماً وقلت له بعد ما قدم لنا الطعام بيده: أكلت قبل أن أجيء. فنظر إليّ وأدرك تواً أنني لم آكل خجلاً فقال لي: لا تجمع بين صفتين خبيثين: الجوع والكذب[2]. ومن حينها أخذت درساً في ملازمة الصدق وأنا معجب بهذه الأخلاق الكريمة.

كان يفكر كثيراً فيما يفرح والدته فرتب لها كمية كثيرة من الدراهم كل مدة يدفعها لها في الوقت المعين، فقالت له مرة: لا حاجة لي بالدراهم لأنني قد كفيت جميع ما يلزمني. فقال لها: إنك تحتاجين إلى النقود لتفرحي بها أولادك وأحفادك الصغار فسرت من قوله ودعت له. وكان دوماً يحض زوجه على رعاية أمه وحسن معاملتها وإكرامها.

كان سائراً في الطريق يوماً فوقف على حانوت وكلم صاحبه بكلمات لطيفة كالصديق للصديق، فابتعد تلميذه عن الحانوت حتى انصرف الأستاذ عنه فسأله لماذا لم تسلم على صاحب الحانوت؟ فقال التلميذ: إنني نفرت منه لأنه كان من تلامذتك يدعو معنا إلى

---

(١) الأمير شكيب إرسلان: قواعد التحديث ص ٥ - ٦.

(٢) وهذا اقتباس من حديث ترويه أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال لها، يوم منى في الحج لعائشة وعندها نسوة: ناوليهن فقلن لا نشتهيه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا تجمعن جوعاً وكذباً.

السلفية. فانقلب عليك وعلينا وأصبح يَنفر وينفِّر إلى أن أطفئت الفتنة التي أثارها علينا الجامدون.

فقال يا بني! هل تريد أن يكون الناس كلهم سلفيين على مشربنا؟ إذا أردت ذلك فأنا أعد لك السلفيين في دمشق، فعدهم فكانوا قليلين. ثم قال: هؤلاء قد تجتمع فيهم في الشهر مرة، فهل تود أن تعيش منفرداً عن الأمة، غير داع للإصلاح؟ ولا صابر على أخلاق الناس؟ إن كل من يعيش منفرداً يعيش عيشة تعسة ليس لها فائدة!

كان رحمه الله عالي الهمة محباً للإطلاع، قصده أستاذ ماهر بالعلوم الرياضية وقال له: إنني أود أن أدرس العربية عليك. فأجابه الجمال القاسمي: إنني أقبل ذلك على شرط أن تعلمني الدروس الرياضية، وفعلاً درس الفلك على هذا الأستاذ.

ومن رقة شعوره وإحساسه أنه كان لا يعطي زوجته ولا بناته ولا أولاده المنديل الذي يبصق به، بل يغسله بيده، ولا يمكن أحداً منهم من غسله كيلا يكلفهم شيئاً يتقززون منه.

ومن بديع توجيهه في بر الوالدين أنه قال: إنني في حياتي لم أخبر والدي بموت صديق له أو شخص يقاربه في السن خشية انزعاجه.

وكان حريصاً على الفوائد لا تفارقه مفكرته، فإذا ذكر أمراً أو حلّاً لمشكلة أو تفسيراً لآية سارع إلى زاوية إحدى الطرق وكتبها خشية النسيان، وقد جمع من هذه المفكرات رسالة جميلة حوت أعظم الفوائد سماها «السوانح» وهي لا تزال مخطوطة.

رآه تلميذه يوماً يتواضع لزميل كان له أيام الدراسة، فاستغرب عمله، وقال له: ما هذا التواضع؟ فقال له: إن هذا كان زميلاً لي في طلب العلم. ولم يجد ويجتهد بل كان يناوئني العداء، فرأيت أن أخفف شيئاً من حسده خشية الإضرار بي لأن الله يقول: ﴿..ومن شر حاسد﴾ ثم قال بعدها: ﴿إذا حسد﴾ أي إذا تمكن الحسد منه فيخترع أنواع الأذى التي لا تخطر على البال، فإننا لا ننجو من شر الحساد إلا إذا التجأنا إلى الله تعالى منهم، ثم سعينا لمداراتهم لتخفيف وطأة حسدهم إذا أمكن.

وكان رحمه الله عفيف النفس، لا يتهافت على وظائف الحكومة والأوقاف[1] ويتجنب التردد على المسؤولين وكبار الشخصيات إلا قليلاً تخلصاً من شرهم. وكان يقول: «كان السلف الصالح من العلماء يتردد على الخلفاء والولاة لوعظهم وإصلاحهم، أما نحن، فقد بتنا نتردد عليهم تخلصاً من شرهم!».

(١) إن مما مكن للعلماء الأفاضل في نفوس الناس هذا الإبتعاد عن الوظائف، والدناءة في طلب المال. وما تؤدي إليه من ذلة وخضوع ـ زهير ـ.

فما رأي علمائنا اليوم من موقفهم من الحكام في العالم الإسلامي، وقد جار كثير منهم ولم يحكموا بالحق؟

لا شك أن منهم قد وقف موقف غير المبالي، لا يهمه من أمر المسلمين شيئاً! وكل غرضه الحصول على وظيفة تسكته، تاركاً البلاد تنعي من بناها ناسياً العهد الذي أخذه الله من العلماء أن يبينوا الحقيقة للناس ولا تأخذهم في الحق لومة لائم!

كلف والي الشام مرة علماءها بالذهاب إلى أقضية دمشق وقراها للوعظ والإرشاد في شهر رمضان براتب جيد، وكان القاسمي من جملة المرشدين الذين دعوا لهذه المهمة، وقد اجتمع هؤلاء العلماء بالوالي بناءً على طلبه قبل سفرهم ليحدثهم عن مهمتهم والغاية من تعيينهم، فدخلوا عليه وأكثروا من مديحه، وبقي القاسمي في مكانه ساكتاً، فلفت حاله نظر الوالي حيث لم يجد منه من التزلف ما وجده من غيره، فكان ذلك مدعاة لاحترامه وتقديمه عليهم جميعاً!

ويحسن بنا أن نعود إلى هذا الحادث فنتكلم على المهمة التي أرسل الوالي من أجلها العلماء إلى القرى، بسبب خطورتها.

إن الدول الإستعمارية كانت في أواخر عهد الدولة العثمانية تمهيداً لاستعمارها، ترسل إلى بلادنا المبشرين لإثارة المنازعات بين المسلمين والنصارى من جهة، ولإفساد عقائد الشباب المسلم من جهة أخرى عن طريق مدارسها، لينشأ ناقماً على دينه مصدر قوته ونقمته على الإستعمار، وقبوله حكم الأجنبي مهما كان.

وقد تنبهت الدولة العثمانية إلى سياسة المبشرين، فراحت تحاربهم حسب قدرتها وإمكانيتها وقتئذ، ولكن هؤلاء المجرمين كانوا يتسترون بمختلف الأساليب والحيل سواء عن طريق المدارس أو المستشفيات أو البعثات وغيرها من الطرق الجهنمية مما كان له أسوأ الأثر في انحلال كثير من الجيل الجديد ودخول المستعمرين إلى بلادنا.

والغريب أن هؤلاء المبشرين بمدارسهم الأجنبية وغيرها لا يزالون يسعون لإتمام مهمتهم. ونحن عنهم غافلون.

ولم يكن للقاسمي راتب من الأوقاف وغيرها سوى إمامة موروثة عن أبيه وجده بسبب عدم إلحاحه كغيره، غير أنه في أواخر حياته كلفه محمد باشا العظم ناظر أوقاف الدولة العثمانية بوظيفة مدرس عام.

ومما يروى عن عفته أن سلطان مراكش عبد الحفيظ زار دمشق، فهرع إليه الكثيرون رغبة في بره وهباته.

لم يخطر على بال القاسمي زيارته، غير أنه بلغه أنه قد طبع كتباً مهمة في نشر الإسلام منها تفسير البحر والنهر لأبي حيان الأندلسي والإصابة في تراجم الصحابة لأبي حجر العسقلاني وغيرهما، فقصده الشيخ وقال: علمت أنك طبعت هذه الكتب لخدمة الإسلام فأطلب منك باسم علماء الدين العاملين أن تهديهم هذه الكتب.

فأعجب السلطان برأيه وعفته وقال له: اكتب لي قائمة بأسماء العلماء الذين يستحقون هذه الكتب.

فكتب له أسماء ثلاثين عالماً. فأمر السلطان حالاً بإحضار هذه الكتب وتسليمها لهم وقد بلغت حصة كل منهم عشرات المجلدات!

شكا له أخوه مرة أمه بأنها لا تحترمه رغم كبر سنه وحسن سمعته وقدره عند معارفه، فأجابه الأستاذ: يجب أن يتسع صدرك لوالدتك، لأنها تخاطبك كما تخاطب الولد الصغير، فيخطر ببالها لما كنت طفلاً في المهد تزيل عنك الأقذار وتسعى ليل نهار لرعايتك!!

مر ليلة بشارع الدرويشية قرب باب الجابية منذ خمسين سنة، فوجد الناس في المقاهي على الرصيفين وهم يلعبون بالورق والنرد وغيرها من الألعاب المحرمة فتأوه وقال:
ما أرخص وقت هؤلاء عليهم! إن أوقاتي ضيقة جداً، فيا ليتهم يعطونني شيئاً من أوقاتهم لأتمم ما أنا شارع فيه من المؤلفات وخدمة المسلمين.

سافر يوماً إلى حلب بصحبة تلميذه، فنزل في مضافة رجل غني جداً، فلم يحسن وفادتها، وقبيل العودة لدمشق قدم له القاسمي هدية ثمينة، فقال التلميذ: إن مضيفنا لم يحسن ضيافتنا مع غناه العظيم، فليتك أقللت الهدية. فأجابه: إنه غني عظيم وقد أردت أن أعلمه السخاء والكرم!

أخلاقه وشمائله:

قال الإمام محمد رشيد رضا يصف القاسمي(١):
كان من أكمل ما رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله: كان أبيض اللون نحيف الجسم ربعة القد، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، غضيض الطرف، كثير الإطراق، خافض الصوت، ثقيل السمع، خفيف الروح، دائم التبسم.

---

(١) المنار ج ٨ م ١٧ ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

وكان تقياً ناسكاً واسع الحلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، براً بالأهل، وفياً للإخوان، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، عائلاً عفيفاً قانعاً.
وقد بينا ما كان لأخلاقه الكريمة من حسن الأثر، والوقاية من كيد الجامدين والحاسدين والإعانة على الإصلاح.

ومن حسن وفائه أنه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الأستاذ الإمام في إبان ثقل وطأة الإستبداد الحميدي، إذ كانت مراسلتنا تعد من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب، ولكنه ترك التصريح بنقل شيء عنا كما يعلم من كتابه (دلائل التوحيد) وصرح لنا بذلك.

ومن عظيم همته أنه شد الرحال إلى البلاد الحجازية في غير موسم الحج للإطلاع على كتاب المحلى لابن حزم لعدم وجوده في دمشق، فدخل المكتبة العمومية في المدينة المنورة بعدما زار الحرم النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم، وسلم على الرسول العظيم، وطلب من القيم الكتاب المذكور، فأجابه: إن هذا الكتاب ممنوع الإطلاع عليه، لأنه لا يتقيد بمذهب ويأخذ بمن هو أقوى دليلاً من الأئمة.

فاحتال القاسمي على القيم وقال له: إنني أريد أن أناقشه وأرد عليه إذا اقتضى الأمر!!
فسر القيم وقال له:
على هذه النية أعطيك الكتاب!

كان رحمه الله تعالى عالي الهمة كأنه حركة دائمة وقد أشفق على صحته المرحوم محمد كرد علي فطلب منه أن يروح عن نفسه بالسياحة فاستغرب ذلك حرمة للوقت فبعث برسالة إلى الشيخ محمد نصيف يحدثه فيها عن اقتراح الأستاذ محمد كرد علي يدعوه فيها للسياحة بقصد الراحة فذكر للأستاذ يقول:
يقول لي صديقنا محمد كرد علي أن الرحلة ضرورية لي لما يرى من إكبابي على ما أنا عليه، ولا تجوال لي ولا رياضة في البلدة لذلك يقول لي إن لم ترتض في مثل هذه الأوقات وتسترح وإلا فأخاف على صحتك.

ولكن ماذا أصنع ولا أرى ـ والله ـ الصحة والنشاط إلا فيما أنا عليه وإذا تركت القلم والكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء وفقنا المولى وأعاننا بفضله وعنايته.

وكان رحمه الله عظيم الصبر شديد الإيمان، قوي الثقة بمسلكه السلفي فكان إذا ذهب من بيته إلى جامع سنان باشا أو مر في أحد شوارع المدينة ينظر إليه خصومه ويشيرون إليه ويحدقون به مظهرين عداوتهم، فكان يقول لتلاميذه: إن عمل هؤلاء يشبه عمل

المشركين حينما كانوا يرون الرسول ﷺ وهو مار في الطرقات وقد جاء القرآن في وصفهم قوله: **﴿وإن يكاد الذين كفروا ليُزلِقونَك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين﴾**[1].

قال الشاعر خير الدين الزركلي[2] يصف أخلاقه وسيرته:

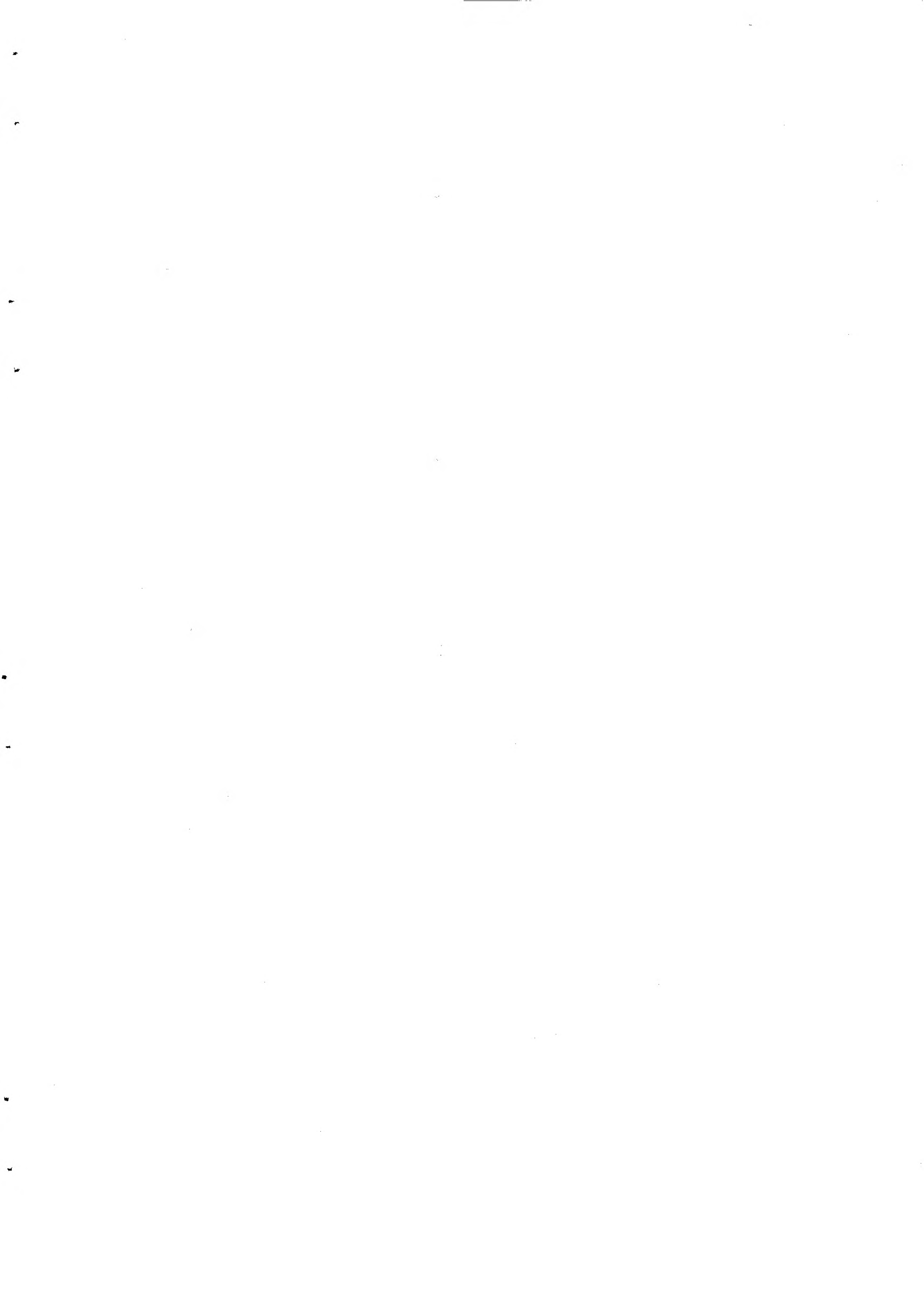
يـا أيها المـوت هـلا كنت تمهله	حيناً لعـل بـه تُسـتَأصَـل الـريب
نعيت للمـوت ذخراً كـان مدخـراً	للنـائبـات وبحـراً ليس يضـطرب
لو كنت تعلم من أرديت نمت على	أجـل ملتحـد يـبكـى وينـتحـب
ألم يكن سيـداً طـابت خـلائقـه	مفضـلاً أنـجبتـه سـادة نجـب
ألم يكن كعبـة القصـاد منـزلـه	والمـورد العذب مـا يملي وينتحب
مـا عـابـه قط إلا أنـه أنـف	يـأبى الهـوان وإلا الجـد والـدأب
والحلم، ما الحلم إلا شيمة غرست	بـه وهيهـات أن يهتـاجه غضب
والجود، ما الجـود إلا من شمائله	يعطي وما إن يبـالي بالـذي يهب
من لي بتعداد ما أحرزت من خلق	وحزت من شيم تسمو بهـا الرتب

---

(١) سورة القلم الآيتان ٥١، ٥٢.

(٢) الأديب الكبير صاحب «الاعلام» في التراجم الذي يعتبر من مفاخر مؤلفات هذا العصر. وقد توفي رحمه الله بمصر سنة ١٣٩٦ هـ.

ولم أجد هذه الأبيات في ديوان الزركلي، وكذلك لم يشر إليها في ترجمته للقاسمي وكان الزركلي في العشرين من عمره سنة وفاة القاسمي.



المراحل في ميدان النضال الأدبي

دعوة الإصلاح الديني
خلاصة مبادىء الدعوة السلفية
كيف كان يصرف وقته
مجلس العلامة ودروسه
في غمار المحنة
أثره في مجتمعه
أسباب نجاحه
عناية القاسمي بابن تيمية
رحلته إلى مصر

دعوة الإصلاح والتجديد:

كان يدعو إلى مذهب السلف والرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة للعودة بالإسلام إلى أصله الأول ونفي ما دخل عليه من بدع وخرافات وأوهام كانت سبباً في بعد المسلمين عن دينهم مما أدى إلى تشويه الإسلام وضعف المسلمين واستيلاء الأعداء عليهم. فكان الجمال القاسمي يدعو العلماء إلى عدم قبول آراء الفقهاء المتقدمين عن تقليد، بل بعد إقامة الدليل عليها وإلا كانوا آلات تدار بدون حرية!

وهذه الدعوة السلفية التي عمل بها كانت شاقة جداً، لها معارضون متعصبون كثيراً، وأنصارها كانوا قليلين، وخاصة في بلاد الشام بعد توقف حركة الإصلاح العظيم الذي بدأها شيخ الإسلام ابن تيمية غير أن جميع هذه الصعاب والمخاطر لم تثنه عن عزمه، ما دام يحمل قلباً ثائراً ورسالة فكرية وهما إذا اجتمعا في رجل جعلا منه شخصية تاريخية خالدة، لذلك كان عمل هذا المصلح عظيماً وجريئاً وخطيراً على حد سواء بسبب ما للتقاليد من أثر في محاربة أهلها للمصلحين، فتمالأ عليه طائفة من المتفقهة ولمزة الحق فاتهموه فيمن اتهموهم بالاحداث في الدين!

وتولى كبر هذا الإفك شرذمة من جهابذة الشهرة والظهور فجرت عليه محن[1].

وقد كان إذا حضر أي مجلس من المجالس سواء كانت علمية أو عامية يقلبها إلى البحث عما يصلح الأمة وتنبيه الحاضرين لأهم الموضوعات التي يجب الكلام عليها. وهذه الخطة حسنة يجدر بنا اتباعها في مجالسنا وسهراتنا.

وكان له هيبة عظيمة وتأثير حتى على أساتذته، فقد كانوا يرجعون إليه في المشكلات،

(١) جميل العظم.

قرأ أستاذه الشيخ بكري العطار حديثاً صحيحاً ثم قال بعد تلاوته: إن هذا الحديث مشكل لأنه يخالف مذهب الشافعي الذي نحن عليه. فأجابه قائلاً:

«يا أستاذ: هل الإشكال في الحديث الصحيح الصريح في الحكم أم الإشكال في المذهب الذي خالفه؟!».

فتنبه عند ذلك الشيخ العطار وأدرك خطأه وقاله له: صدقت فإنه لا إشكال في الحديث إنما الإشكال في مذهبنا الذي خالفه!.

وكان يدعو إلى التوحيد الصحيح الذي كان يدعو إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد ناظر كبار العلماء في التوحيد وأوضح لهم ما داخله من الشرك الذي هو أعظم من شرك المشركين. فقد كان الكفار يدعون الله وحده في الشدائد، بعكس المبتدعين في زماننا فإنهم ينسون الله عند الشدائد ويدعون غيره.

قال تعالى في وصف المشركين الأولين: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾ (سورة العنكبوت آية ٦٥).

وكان همه الأعظم إثبات أن الشريعة الإسلامية جاءت آمرة بالسير مع مصالح البشر وناهية عن المفاسد.

وكان يقول: إن أهم ما نشرته الآن رسالة العمل بالمصالح المرسلة للطوفي الحنبلي الذي شرح رسالة الأربعين النووية، فأخذت شرحه لحديث «لا ضرر ولا ضرار» الذي استنتج منه الطوفي أن الدين يسير مع المصالح وجوداً وعدماً، وعلق عليها بالتأييد.

كانت دعوته للسلفية بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان لا يفاجىء أحداً بما يكره، ويأتي الخصم من حيث لا يشعر فيصيره سلفياً وهو لا يدري كيف صار. قال تلميذه: كنت في أول عشرته مخالفاً له في مشربه، وقد وصل بي التعصب أنني إذا صليت وراءه ورفع يديه في الإنتقالات أعدت صلاتي منفرداً فأدرك ذلك مني - رحمه الله - وأخذ يناقشني بهدوء حتى اهتديت إلى السلفية وأخذت أنشرها، ولما رآني قد غلوت بالطعن على المبتدعة قال: خفف هذه الوطأة وتذكر أنك كنت منهم فاشكر الله وقل: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ (سورة الأعراف آية ٤٣).

وكان يقول: إذا أردت أن تدعو أحداً إلى الإسلام الصحيح فحثه على دراسة كتب السنة الصحيحة كالبخاري ومسلم!!...

وكان يتباعد كل التباعد عن الخلافات الطفيفة التي لا تؤدي إلا إلى التفرقة وتوسيع

الخلاف دون كبير فائدة بل إنما كان يهتم بكل ما يتصل بأصول العقائد، ولذلك كان يعتني بطبع ونشر وقراءة كتب الأصول على اختلاف مذاهبها فيطبعها بعد أن يشرحها ويحققها. وقد عني بتعداد أصول الأدلة فأوصلها إلى عدد عظيم جداً في شروحه على كتب الأصول.

وكان من أسلوب دعوته أنه إذا أراد صرف الناس عن عقيدة فاسدة أو بدعة فاشية يلجأ إلى التحذير منها بالنقل عن عالم موثوق به عندهم. أحب أن ينبه على أن التقليد لا يجوز في دين الله ووجوب العمل بالكتاب والسنة الصحيحة فطبع رسالة أخذها من الفتوحات المكية لابن عربي ـ وإن كان بعيداً عن معتقده ومشربه ـ لعبارتين عنده وهما الدعوة إلى وجوب العمل بالكتاب والسنة ورفض التقليد. فقد قال ابن عربي في تلك الرسالة المطبوعة: «ولا يجوز عندنا تقليد حي ولا ميت». وقال فيها أيضاً: «ولا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله!!».

وقد سعى مع صديقه المصلح العظيم الشيخ طاهر الجزائري لنقل نسخة كتاب العلم الشامخ في إثار الحق على الآباء والمشايخ تأليف الشيخ صالح المقبلي اليمني، فيه عدة فتاوى لكبار العلماء والقضاة والمفاتي بتكفير من يقول من الصوفية بالإتحاد ووحدة الوجود مستدلين بنصوص كثيرة من كلامهم في كتبهم المعروفة. فيها الكفر الصريح الذي لا يخالف في كونه كفراً إلا مكابر أو جاهل، والكتاب المذكور نقله من نسخة خطية في مكتبة القدس.

طريقته في الإصلاح:

قال الإمام محمد رشيد رضا رحمه الله:

حسب من نشأ وتعلم وتربى في أرض التعصب للتقليد، والجمود على العادات والخرافات، تحت سماء الإستبداد، والحجر على الألسنة والأقلام، ـ ولم تكن هذه المفاسد في الأستانة أشد منها في الشام ـ أن يكون بسلامة فطرته، وعناية الله به، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي في استقلاله، ونزاهته واعتداله، ونظافة عقله وقلمه ولسانه، وجرأته على مجاهدة الجمود والتقليد، والجمع في إحياء علوم اللغة والدين بين الطريف والتليد.

أما طريقته في الإصلاح وغايته فيه فلم يكن فيهما على خطة مقررة من أول النشأة، وإنما كونتها الحاجة بقدر استعداد البيئة، وفتح الرجل عينيه فرأى أطلال العلم في بلده دارسة. وأعلامه طامسة. وقد كانت مهاجراً يرحل الطلاب إليها، فأصبحت مهجورة يرحل عنها. فكان الإصلاح الضروري فيها إيجاد نشء جديد من طلبة العلم يعلمون تعليماً صالحاً يرجى أن يحيا به ويهم العلم، وقد كان سبب اختيار الشيخ لقراءة بعض الكتب ولكتابة بعض الشروح والتعاليق على بعضها، هو الضرورة أو الحاجة إلى تدريسها، لا كونها صالحة في نفسها، أو

محاولته إصلاح التعليم بها. مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومتن الشمسية في المنطق. كان مما لا بد منه. لأن طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما. ونقيس ما لم نعرف عذره فيه ـ كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتون ـ على ما عرفنا عذره فيه كمتن الشمسية وشرح الفناري. وكلاهما لا يصلحان للتدريس، في رأي العارفين بطرق إصلاح التعليم. ولو كان الشيخ في مصر لقلنا إن عذره في قراءة جمع الجوامع اعتماد الجامع الأزهر عليه في الإمتحان ونيل الشهادة العالمية.

لعلنا لو اطلعنا على جميع ما كتبه لظهر لنا من عذره ما لا يظهر لنا الآن. أو ننتقد منها ما لا نظن الآن أنه منتقد. وحَسْبُ الرجل أن يكون مصلحاً في سيرته ومجموع أعماله.

قد اطلعنا على كتاب دلائل التوحيد وبعض الرسائل من مؤلفاته المطبوعة، وقرظنا بعضها في المنار وبينا مزيتها فيه. ويمكننا أن نستنبط منها ومن مذاكراتنا القصيرة له ما نعده للقارئين من مزاياه ومزاياها:

١ ـ أن القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون. وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس، ورأى حاجة أهل البلاد إلى بعض تلك الكتب لأجل الإمتحان، وأن المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالماً حقيقة إلا بتحصيل كذا وكذا منها (كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني) فكانت هذه الأمور الثلاثة أسباباً لمحافظته على بعض ذلك التليد.

٢ ـ أنه كان يرى أن ما يثبت بالدليل النقلي في النقليات، والعقلي في العقليات، وبالتجربة في المجربات، لا تتلقاه بالقبول هذه الأمة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل، إلا إذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين، ولا سيما إذا كان من المشهورين، فكان يرى هذا ركناً من أركان الإصلاح في التدريس والتأليف لأجل إقناع المستدلين والمقلدين معاً، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير أحياناً.

٣ ـ أنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة، بلا زيادة ولا نقصان، على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول. وقد اتهم ـ كما اتهم غيره من المستقلين ـ بأنه أحدث مذهباً جديداً في الإسلام، ولما كانت حادثة السعاية التي أشرنا إليها، وذكرنا أنه حبس فيها، لغط حساده بهذه المسألة فقال يرد عليهم بقصيدة سنأتي على ذكرها حين الكلام على شعره.

٤ ـ كان يتحرى في المسائل الخلافية الإعتدال والإنصاف، واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل. وكان لحرصه على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد

في استبانة حجة كل فريق من أصحاب المذاهب، وتقريب أحدهما من الآخر، بإظهار حجته أو شبهته، وحكاية ما يعارض الخصم به. ومن كانت هذه طريقته فكثيراً ما يغضب الخصمين معاً. فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر. ثم إذا كان أحدهما مصيباً والآخر مخطئاً يتعذر على محب الإعتدال في الحكم بينهما أن يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطاً بينهما، إذ ليس بين الحق والباطل وسط، وإنما يكون الحق وسطاً بين باطلين، أو أباطيل ترجع كثرتها إلى نوعين ـ الزيادة على الحق أو النقص منه. وقد اتهم الفقيد بعض السلفيين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته (تاريخ الجهمية والمعتزلة) التي نشرناها في المنار، على شدة حرصه عليه وتحرِّيه إياه؛ وانتقدها بعض الشيعة كما يأتي. واتهمه بعض المستقلين بعثرة أخرى في رسالته (نقد النصائح الكافية) وهي أن حب الإعتدال وتقريب أحد الخصمين من الآخر أخرجه عن الإعتدال في بعض المسائل، ولكن بقصد الإصلاح.

وههنا مسألتان:

(إحداهما) أن المستقل في علمه وحكمه حق الإستقلال يتحرى ما يظهر له أنه الحق فيقوله ويحكم به وإن أغضب جميع الناس عليه. وقصارى ما يستبيحه من إرضاء الناس أو استمالتهم التلطف في القول، وتزيين الحق الذي ثبت عنده بحلي البيان وحلله، دون إبرازه لهم عاري الجسد عاطل الجيد.

(الثانية) أن الإصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حث عليها الشرع وعرف حسنها العقل، وقد أبيح فيها الكذب عند الضرورة عملاً بقاعدة «ارتكاب أخف الضررين» فبالأولى يباح فيها التماس العذر لكل خصم فيما خالف فيه الآخر، وتوجيه ما قام عنده من الحجة أو شبه الحجة. وهذه الطريقة في الإصلاح أقرب الطرق لإرضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم إلا موافقتهم واتباعهم.

أما العمل بهاتين المسألتين وإعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جداً، فإن المستقل جد الإستقلال إذا تصدى للتوفيق بين الخصمين المتعصبين يغضبهما جميعاً وإنما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للإستقلال، إذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

ومن الآيات على ذلك أن رسالة (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى ـ وهم أهل السنة الأثرية والأشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج ـ وقد كتب بعض علماء الشيعة رداً عليها قبل إتمام نشرها، وهل يرضى شيعي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما؟ وأنكر بعض أهل السنة الأثريين بعض المسائل فيها كما تقدم. فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها أحد علماء الشيعة

للتوفيق بين الأمة بزعمه أو دعواه الظاهرة فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة إلى التشيع بتخطئتهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف!![1].

ونرى أن نختم بحث دعوة الإصلاح والتجديد بكلمة للسيد مرتضى اليماني رحمه الله ذكرها القاسمي في المطلع الثاني من كتابه في التحديث ص ٩.

«فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلما يعرفه إلا واحد، وإذا عظم المطلوب قل المساعد، فإن البدع قد كثرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها؛ وطالب الحق اليوم، شبيه بطلابه في أيام الفترة وهم: سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نُفيل وأضرابهما رحمهما الله تعالى؛ فإنهم قدوة الطالب للحق، وله فيهم أعظم أسوة، فإنهم لما حرصوا على الحق وبذلوا الجهد في طلبه، بلّغهم الله إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمة، فكم أدرك الحقَّ طالبه في زمن الفترة! وكم عمي عنه المطلوبُ له في زمن النبوة! فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك، فإن الحق ما زال مصوناً عزيزاً، نفيساً كريماً، لا يُنالُ مع الإضراب عن طلبه وعدم التشوف والتشوق إلى سببه؛ ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يفاجىء أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطال ولا غافل».

ومن أعجب قصصه مع خصومه أنه زار دمشق عالم من علماء المغرب العربي ونزل ضيفاً عند أحد المشايخ، ودعا من أجله جميع العلماء، ومن جملتهم الأستاذ القاسمي، فلما اجتمعوا بدأ صاحب الدار يعرف الحاضرين بعضهم ببعض، ولما جاء ذكر القاسمي عرفه باسمه، فقال أحد الخصوم: هذا هو جمال الدين الذي نقل عن ابن حجر الهيثمي الفقيه الشافعي «أنه لا يسوغ القيام في المولد عند الولادة وأنه بدعة، فالعوام معذورون والخواص لا ينبغي لهم فعله».

ثم كذب هذا الخصم على القاسمي وقال: إنه لا يحترم النبي ﷺ، يريد بذلك الفتنة والحط من قدر القاسمي رحمه الله.

فأدرك العالم المغربي حسد وجهل الخصم فتوجه بكليته إلى الشيخ جمال ولم يعد يلتفت إلى بقية الشيوخ، ولما أراد الإنصراف طلب منه الإجازة فأجازه الأستاذ جمال بالتدريس نظماً.

ملخص مبادىء الدعوة السلفية:

هذه خلاصة مبادىء الدعوة السلفية التي كان يدعو إليها الأستاذ جمال القاسمي وغيره من السلفيين قديماً وحديثاً:

---

(١) المنار ج ٨ م ١٧ ص ٦٣١ - ٦٣٤.

١ ـ الرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، وفهمها على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

٢ ـ تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه والتحلي بفضائله وآدابه التي تكفل لهم رضوان الله وتحقق لهم السعادة والمجد.

٣ ـ تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، ومن البدع والأفكار الدخيلة والأحاديث المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام، وحالت دون تقدم المسلمين ونهوضهم.

٤ ـ إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد العلمية الإسلامية.

٥ ـ إزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي.

٦ ـ المشاركة في تقديم حلول إسلامية لمشكلات الحياة الراهنة.

هذه أهداف السلفيين، وخليق بكل مسلم مخلص مؤازرتهم في حمل هذه الأمانة التي تنهض بالمسلمين وتنشر رسالة الإسلام الخالدة.

والغريب أن تلقى هذه الدعوة الإصلاحية الكبرى المعارضة والمقاومة من بعض الناس، وفيها كل الخير للمسلمين فتجمعهم في مذهب واحد هو مذهب محمد ﷺ إذا ما حكموا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حيث تزول الخلافات المذهبية بينهم.

إن المعارضين يضعون العراقيل أمام هذه الدعوة السامية معتبرين استحالة الاجتهاد. وقد جاء في كتاب «الفتوى في الإسلام». للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (ص ١٦) نقل عن العلامة السفاريني الحنبلي في بعض رسائله عن العلامة ابن حمدان أنه قال[1]:

«إن الإجتهاد المطلق الآن أيسر منه في الزمن الماضي الأول، لأن الحديث والفقه قد دوّنا، وكذا ما يتعلق بالإجتهاد من الآيات القرآنية والآثار النبوية وأصول الفقه والعربية وغير ذلك، ولكن الهمم قاصرة، والرغبات فاترة، ونار الخير والجد خامدة، وعين الخشية والفكرة جامدة، اكتفاء بالتقليد، وخلوداً إلى الراحة وعدم التسديد وبالله التوفيق».

وقد سمعت أستاذنا ناصر الدين الألباني محدث الشام يقول لنا: «إن الإجتهاد يقلل الخلافات بين المسلمين في جميع مذاهبهم وفرقهم ـ إذا حكموا الكتاب والسنة الصحيحة كما هو المفروض ـ وقد تبقى مسائل خلافية بسيطة لا خطر منها، كما تشهد بذلك دراسة تراجم المصلحين والمجددين أمثال ابن تيمية وابن القيم والصنعاني والشوكاني، فإنك ستجد هؤلاء

---

(١) يشير إلى كتاب «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» لابن حمدان وقد يسر الله لي طبعه بتحقيقي، وخرج أحاديثه أستاذنا الألباني وهو من طبع المكتب الإسلامي ص ١٧.

وأمثالهم قد اتفقوا على أكثر المسائل التي اختلفت فيها المذاهب الأربعة.

والعجيب أن يتنكر البعض للإصلاح الديني بوضع شروط للإجتهاد يكاد يعجز عنها الإنس والجن! ويحق لنا أن نسألهم:

أولاً: هل هذه الشروط المذكورة في بعض كتب الفقه هي آيات قرآنية أم أحاديث نبوية؟ أم أصول أجمعت عليها صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، أو أئمة المذاهب أنفسهم؟

لا أظن أن أحداً من المعارضين يقول شيئاً من ذلك. فإذا كان الأمر كذلك فما له يفرض هذه الشروط ويجبر دعاة الإصلاح على التقيد بها وبفروعها التي لا يمكن أن تهضم، والتي كانت سبباً في محاربة المصلحين، وجمود الفقه عن مسايرة مطالب الزمن، مما دفع الحكام إلى جريمة الإقتباس من القوانين الأجنبية مع العلم بأن العلماء المحققين من كل مذهب قد نصوا على أن الإجتهاد يمكن أن يتجزأ.

ثانياً: في أي منطق تعتبر الشخص مجتهداً إذا هو وجد حديثاً صحيحاً غير منسوخ ثم راح فاتبعه عملاً بقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله﴾ (سورة النساء آية ١٥٩).

وقد ورد عن كل إمام من أئمة المذاهب قوله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»[1].

فما حجة المعترضين؟

قد يقولون: «ولكن هذا التوجيه من الأئمة للمجتهد الذي يعرف ناسخ الحديث من منسوخه، ومجمله ومفصله وظاهره ومدلوله...».

لا ندري من أين أتوا بهذه الزيادة التي لم تذكر في عبارة فقهائنا رضوان الله عليهم، ولا يتصور العقل أن يذكروها لأنهم كانوا يعلمون أن هناك أحاديث كثيرة لم يطلعوا عليها بسبب أن الصحابة لم يكونوا على علم واحد بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتيجة تغيب بعضهم عن مجلسه من حين لآخر. ولما تفرقوا في الأقاليم حين الفتوحات اتصل كل من الأئمة بفريق من التابعين وتابع التابعين الذين أدركوا هؤلاء الصحابة المتباينة ثروتهم الحديثية.

زد على ذلك أنه لا يعقل أن يخاطب الإمام أبو حنيفة وغيره من الأئمة بهذه الكلمة وأمثالها المجتهدين، فإن هؤلاء ليسوا بحاجة إلى مثل هذا التوجيه، لذلك فإن توصية الإمام: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» يقصد بها غير المجتهد من المقلدين كما قال الإمام المحقق

(١) انظر «صفة صلاة النبي ﷺ» الصفحة ٢٤ من الطبعة الحادية عشر.

الفلاني في كتابه إيقاظ الهمم (ص ٥٠) وجاء مثلها في أقوال الحنفية والشافعية وأتباعهم كابن الصلاح والنووي وابن الشحنة وغيرهم من جواز العمل بالحديث، ولو لم يكن عنده وسائل الإجتهاد. لهذا كله يمكنني أن أقول لهؤلاء المعارضين:

«أنتم لا الكتاب والسنة اتبعتم لقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾» ولا أئمة المذاهب وأتباعهم قلدتم وكلهم يأمرون بالعمل بالحديث للمقلدين!!

ولا أدري لماذا يخشى هؤلاء المعارضون من فتح باب الإجتهاد وإيجاد مذهب خامس وسادس ما داموا يعتقدون بالحديث غير الصحيح القائل: «اختلاف أمتي رحمة!» كما يعتقدون أن المذاهب كالصيدليات يجد كل من المسلمين مبتغاه دون مراجعة الطبيب الأول وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم!!

الحق أن السلفيين دعاة الإصلاح الذين ـ وفي مقدمتهم الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ـ لا يدعون إلى مذهب خامس، بل يدعون العالم الإسلامي قاطبة للرجوع إلى النبعين الفياضين للإسلام وهما: كتاب الله وسنة رسول الله، وبذلك يلتقي المسلمون على مذهب واحد.

أما الآن وقد جمعت وصنفت وعرف ناسخها من منسوخها ومطلقها من مقيدها وصحيحها من ضعيفها.

أجل أما الآن فقد حان الوقت لتبسيط الفقه والرجوع إلى مذهب واحد هو مذهب محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه وأصحابه رضي الله عنهم.

وإن أعجب ما لاقاه القاسمي رحمه الله وغيره من دعاة المصلحين الذين يتوقف على دعوتهم الفوز في الدنيا والآخرة أمران اثنان.

أولهما: أن أهل التقليد كانوا يوصمون القاسمي بأنه يفرق صفوف المسلمين، بينما دعوته توجب توحيد العالم الإسلامي على مذهب واحد كما قلنا، وذلك بالرجوع إلى الدليل في كل شيء عملاً بنصيحة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً»[1].

ثانيهما: أن هؤلاء العلماء المقلدين يتهربون من البحث مع الجمال القاسمي ومع غيره، ويعرقلون نهضتهم وينفرون منها العامة، ناعتينهم تارة بالوهابيين، وتارة بالمجتهدين، وتارة بالجاهلين، والله شهيد على ما يصنعون.

---

(١) راجع مصادر هذه الرواية في كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للأستاذ المحدث ناصر الدين الألباني ص ٢٥.

إن السلفيين ـ وفي مقدمتهم جمالنا القاسمي ـ رحمه الله ـ يكفيهم بشارة قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس!».

رواه البخاري ومسلم

قال ابن المديني في الطائفة المذكورة في شرح الحديث السابق هم: (أهل الحديث) الذين يتعاهدون مذهب الرسول ﷺ ويذبون عنه لولاهم لأهلك الناس المعتزلة وأهل الرأي».

وذكر نحو ذلك أعيان الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل وابن المبارك وكثير غيرهم.

وقال صلى الله عليه وسلم:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارىٰ على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا ما أنا عليه وأصحابي».

لقد أوصى الله عباده المؤمنين أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا منه، إن شريعة الله واحدة، وهذه الخلافات يجب أن تزول. فإن المسلم الحريص على دينه يسارع إلى قبول الحق متى ظهر له. وهل الحق إلا ترك الأهواء والنزعات والعواطف جانباً.

ومن يفعل ذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (سورة آل عمران آية ١٠٣).

كيف كان يصرف وقته:

قال الإمام محمد رشيد رضا:

كان رحمه الله تعالى يقرأ الدروس العربية والشرعية للطلبة وللعامة، ويخطب في المسجد خطبة الجمعة، ويصنف الرسائل والأسفار الممتعة، ويصحح ما يرى نشره نافعاً من كتب المتقدمين، ويشرح المختصر ويختصر المطول منها، ويسعى في طبعها ونشرها، ويبث روح الإستقلال والإستدلال في ذلك كله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. وكم سعى فيه، وكاد له أولئك المعممون الجامدون فأنجاه الله منهم، وإن أكبر الكبائر التي يتهمون بها كل من يدعو مثله إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هي محاولة هدم الدين بفتح باب الإجتهاد والإستدلال، وما يستلزمه ذلك بزعمهم من تحقير الأئمة، ومن اتبعهم من علماء الأمة!! وقد اتهم مرة بذلك مع بعض أصدقائه وعقد لهم مجلس في المحكمة

الشرعية وسألهم القاضي عن تلك التهمة، وأخذ الفقيد من دونهم إلى دار الشرطة، وحبس فيها بضع ساعات.

كان له رحمه الله تعالى دروع سابغات من أخلاقه وسيرته، تقيه بغي أعداء العلم والإصلاح من حساده، إذ كان نزيه اللسان، بعيداً عن المراء والجدال، متجنباً للأزراء بغيره، والتعريض بغميزة خصمه أو مدح نفسه، غير مزاحم لوارثي العمائم على الحطام، ولا مسابق لهم إلى أبواب الحكام، إلى ما كان عليه من العبادة والعفة والإستقامة[1].

كان يقسم أوقاته ليلاً ونهاراً في الأعمال النافعة له ولأمته فلا يضيع شيئاً منها بلا فائدة.

فوقت الفجر للدروس، وضحوة النهار للتأليف، وبعد الظهر للقيلولة ووقت العصر للدروس، ووقت المغرب لوعظ العامة وبعد العشاء للتفسير.

تتألف دروسه من العلوم الدينية والعربية والعقلية.

وكان يهتم جداً بتدريس علم الأصول وطبعه ونشره. ذكر عن شيخه الشيخ محمد الخاني[2] أنه وهو يقرأ عليه علم الأصول قال له: نحن ـ ويا للأسف ـ نقرأ هذا العلم للتبرك لأنه لا فائدة لنا فيه، إنما يستفيد منه من يكون حراً مجتهداً، لا مقلداً مثلنا!!

وسبب اهتمامه بعلم أصول الفقه أنه يدفع الناس إلى الإجتهاد ويعلمهم طرقه ويحارب التقليد.

هكذا كان يقضي وقته ساعياً مجاهداً في سبيل الله لا يريد جزاءً ولا شكوراً، ولو أنه حصر همه وجعل وقته لصيد وظائف الأوقاف ـ كما يفعل كثير غيره ـ لحصل على ثروة كبيرة، ولكنه كان خسر رضاء ربه لأن الوظيفة الدينية ـ على الغالب ـ تلجم صاحبها وتجعله مرناً إلى أقصى غاية المرونة...!!

رحمه الله. إنه آثر الفقر مع الجرأة وقول الحق ومحاربة الخرافات والأوهام، على المال والشهرة والجاه عند العوام والمقلدة وليس أدل على شجاعته ومغامرته من كتابه: «إصلاح العوائد في بدع المساجد»[3] الذي سنأتي عن ذكره مفصلاً حين الكلام على مؤلفاته.

مجلس العلامة ودروسه:

كان يقرأ درس التفسير في داره التي كانت كأنها مدرسة يتناوبها الطلاب ليلاً ونهاراً،

---

(١) المنار ج ٧ م ١٧ ص ٥٦٠.

(٢) توفي في دمشق سنة ١٣١٦ هـ، «أعيان» ص ٣٨٣.

(٣) وهو من طبع المكتب الإسلامي، واسمه الصحيح: «إصلاح المساجد من البدع والعوائد».

فكان حين إلقائه هذا الدرس يمسك بيده تفسير الجلالين ثم يشرح من عنده على طريقة الإمام الشيخ محمد عبده، فتارة ينتقد التفسير المشار إليه وتارة يؤيده ويبين ما شوهه المفسرون في تفسيرهم مما هو أجنبي عن القرآن من الإسرائيليات البعيدة عن الشرع والعقل وتساهلهم الكثير في ادعاء نسخ كثير من الآيات الكريمة[1].

ومن آرائه: كل درس لا يكون فيه أخذ ورد ومناقشة من الأستاذ والتلاميذ لا فائدة منه. وكان إذا شعر من التلاميذ مللاً وسآمة، أمرهم بإغلاق الكتب ثم يشرع في ذكر القصص والنوادر المنعشة الأدبية المفيدة التي تعيد النشاط للحاضرين ثم يرجع الأستاذ إلى إتمام الدرس. وهذه ملاحظات تربوية هامة حصل عليها الأستاذ القاسمي بفطرته السليمة وبسبب اطلاعه الواسع على السيرة النبوية التي تفيد من يدرسها بعمق فوائد تربوية جلى، قد ضاعت عن الكثيرين مما أدى بالمستمعين إلى السأم والملل وهجر الدروس!

وكان في دروسه حاضر الذهن سريع البديهة، فلا يستشكل جواب مسألة، ولا استحضار آية أو حديث، وأحياناً يقول لطلابه: دعوني دقائق ثم يعطي الجواب.

كان يعطي مستمعيه حرية البحث خلال دروسه فكان يسر إذا خالفوه ويقول لهم: لكم رأيكم ولي رأيي!

وكان سهل الأسلوب حين إلقاء الدرس، فصيحاً بليغاً، يفهمه الخاصة والعامة، يراعي الحكمة حين الإلقاء، ويخاطب الناس على قدر عقولهم. ولا ينفر أحداً ولو كان يخالفه في دعوته السلفية، فيدعوه إليها ببراهين يسلم بها خصمه، وكان يقول: تباعد ما استطعت عن كلمة أقول، لأنها تؤدي إلى حسد الحاسدين ونفورهم، وكان يعتقد أنه قل أن يأتي السلفي المتأخر بشيء قد سبق به السلف القديم. كأنه يعني المسائل التي وقع لهم البحث فيها واختلفوا على أقوال، فالسلفي اليوم لا يمكنه إلا أن يتبنى قولاً من تلك الأقوال، ولا يجوز له أن يأتي بقول جديد لم يسبق إليه منهم لأن الحق لا يتجاوزهم كما يقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه.

وأما المسائل التي يسبق البحث لهم فيها، لعدم الحاجة إليها، فهنا يظهر علم السلفي وفقهه، وهنا لا بد له من أن يأتي بشيء جديد لم يسبق إليه من قبل، في حدود أدلة الكتاب والسنة والقواعد التي استنبطوها منها، ولنضرب على ذلك مثلاً، الصلاة في الطائرة فالسلفي لا يتردد في القول بجواز الصلاة فيها، وأنها كالصلاة في السفينة ولا فرق، لأدلة كثيرة منها

---

(١) إن تفسير «الجلالين» كان وما زال الأسهل تناولاً من كتب التفسير ولكن فيه وفيه.. وقد قام العالم الفاضل الشيخ محمد أحمد كنعان بالتعليق عليه، وبيان ما فيه وطبعناه باسم «قرة العينين على تفسير الجلالين» كما أن للأستاذ الاستانبولي تعليقات عليه تنتظر الطبع - زهير -.

قوله ﷺ: وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره ـ متفق عليه ـ بينما غير السلفي لا يسعه الإفتاء بذلك لأنه قد يجد في المذهب ما يخالفه، فقد جاء في بعض المذاهب لو أن رجلاً صلى في أرجوحة غير معلقة بالسقف ولا مدعمة بالأرض فصلاته غير صحيحة! فقد وجـدت اليوم هذه الأرجوحة وهي الطائرة كما لا يخفى ولكن الصلاة فيها صحيحة قطعاً عند السلفيين، وهذا القول له أمثلة كثيرة مما لم يسبق إليه للسبب الذي ذكرنا.

كان تلاميذه يتمنون حين إلقاء درس التفسير أن لا يكون له آخر وذلك لعذوبة لفظه وقدرته على تفهم الحقائق. وكان إذا أنهى درسه وأغلق كتابه يشعرون بغربة كأنما كانوا في روضة وخرجوا منها!

في غمار المحنة:

كان لجمال الدين خصوم عنيدون، فكان يباحثهم ويجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إذا رأى منهم عناداً أعرض عنهم ولجأ إلى الكتابة والنشر في الجرائد والرسائل، فكأنه كان يستخدم سياسة معاوية حين قال: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.

وقد كان بعيداً جداً عن ذكر أسماء خصومه عند الرد عليهم، فقد رد على أحدهم، وكان يدعي وجوب شيء وهو ليس بواجب، بل هو بدعة، بطبع رسالة أسماها «تنبيه الطالب إلى معرفة الواجب» ذكر فيها ما ينوف على مائة قاعدة في معرفة الواجب دون أن يصرح باسم خصمه الذي رد عليه، وقد رد على بعض علماء الشيعة رداً أدبياً مما اضطر خصمه أن يحترمه خلال الرد عليه ويقول: في كتابه المراجعات قال شيخنا القاسمي.

وكان له هيبة عجيبة ومكانة في عيون خصومه، فقد شاهده أحدهم مرة في الطريق، فما وسعه عند رؤيته إلا أن أقبل عليه وقبل يده.

ومن حسن تخلصه مع خصومه في مواقف يخشى منها إثارة فتنة أن أحد أعدائه المفسدين سأله أمام جمع غفير من الناس:

ما مذهبك؟

فأجابه بداهة: إنني تفقهت على المذهب الشافعي!

قال له تلميذه مرة: إن مما يدل على بطلان دعوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفي أنني اطلعت هذا اليوم على كتاب يرد عليه أخوه سليمان[1] وهو أعلم الناس بحقيقته.

---

(١) يذكر المؤرخون أن الشيخ سليمان رجع عن خصومته لأخيه الإمام محمد بن عبد الوهاب بعدما استبان له الحق وندم على ما ظهر منه في الرسالة الآتية ونقل من كتاب صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ٤٦١ ـ ٤٦٣.

فقال: ليس في هذا دليل لك. وأنت تعلم أن أقرب الناس إليّ فلان ـ وقد سماه ـ قد نصب لسلفيتنا العداء لساناً وقلماً، وحق لك أن تذكر بهذه المناسبة عداوة أبي لهب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم!

وعلى الرغم مما استخدم القاسمي من أساليب الحكمة في نشر آرائه، فإنه لاقى من عنت العارفين بعض الأذى مما سنأتي على ذكره فيما يلي.

المحنة الأولى:

حضر المصلح الكبير الشيخ رشيد رضا في ابتداء عهد الحرية من مصر إلى دمشق فألقى محاضرة في الجامع الأموي موضوعها المسألة الشرقية ومؤامرة الدول الغربية لتقسيم الدولة العثمانية والإستيلاء عليها. وحض الدولة العثمانية على لزوم الإستعداد التام والتجنيد العام.

فنقم الخرافيون على الشيخ رشيد رضا واحتالوا عليه بلزوم إلقاء محاضرة ثانية في اليوم الثاني ودبروا مؤامرة للفتك به وبكل سلفي بواسطة إثارة العوام.

بدأ الشيخ رشيد بتفسير آية من كتاب الله، فقاطعه أحد الشيوخ الخرافيين ونادى في الناس: أيها المسلمون ـ وأشار إلى الشيخ رشيد ـ إن هذا وهابي لعنه الله. وخطب آخر وقال: أيها الناس! هل منكم أحد أشرك بالله؟ فأجابوا: لا، فقال: إن هذا ـ أي رشيد رضا ـ يقول عنكم أنكم جميعاً مشركون، وهو من الوهابيين الذين يبغضون النبي ﷺ ويؤذونه وقد روثوا بخيولهم عند قبره!

فهاج العوام وحاولوا الفتك بالشيخ رشيد رضا وتقطيعه إرباً إرباً. فوقف الأستاذ رشيد على كرسي الدراسة وخطب في الناس قائلاً:

أيها المسلمون: قد رأيتموني حين دخلت المسجد وحضرتم درسي أولاً وثانياً، فهل سمعتم كلمة مما نسبها إليّ هذا الشيخ؟

فأجابوا: لا.

فقال: قال سبحانه: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون﴾. (النحل: ١٠٥).

بقي الناس في هياج بتأثير المضللين ولكن كان في جانب السيد رشيد مضيفه عثمان شقيق رفيق العظم، فهدأ الفتنة مع جماعة من الشباب وطلاب المدارس وانبرى إلى الناس جميعاً وقال لهم: أنا وأنتم من العامة، وهذه المناظرة بين الأستاذ الذي هو ضيفي، وبين العلماء، فمن أراد مناظرته فليحضر إلى بيتي، فإنه لا فائدة من المناقشة في مثل هذا الموضع.

ولكن لم يتجاسر أحد من الحضور مناظرة الشيخ رشيد رضا الذي غادر البلاد صباح اليوم الثاني من الحادث حفظاً على حياته وتخلصاً من الفتنة!

ولم يكتف هؤلاء الأشرار بما فعلوا، بل أثاروا العامة على كل من يحمل الفكرة السلفية ويدعو إليها، فهيجوا الناس على الشيخ جمال الدين القاسمي وصحبه ومنعوه من الإمامة في مسجد سنان باشا أربعين يوماً.

فتألم المصلحون من أهل الشام فأرجعوه بالقوة إلى إمامته ودرسه ووعظه.

استاء الخرافيون من السلفيين الموجودين في الشام، فخطب أحدهم على منبر المسجد الأموي وهيج المستمعين جميعاً على هؤلاء المصلحين ونعتهم بالوهابيين، وكان مما قاله بالحرف الواحد: «من الأسف أن يكون بعض هؤلاء الوهابية أئمة في مساجدكم المهمة!» ويقصد بذلك الشيخ جمال الدين القاسمي.

ومن العجيب أن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي هي موضع إعجاب العلماء الحقيقيين لما قام به هذا المصلح الكبير من محاربة البدع والخرافات وتنبيه المسلمين إلى ما وقع فيه أكثرهم من الشرك بسبب الإستغاثة بالأنبياء والأولياء والحلف بهم والنذر لهم وغير ذلك من مظاهر الوثنية التي حاربها الإسلام.

أجل إنه من العجيب أن تكون هذه الحركة العظيمة المباركة موضع طعن من أعداء الإصلاح الذين يودون إهمال العامة وتركهم في ضلالهم، وقد أخذ الله تعالى ميثاق العلماء أن يبينوا للناس الحقائق مهما أصابهم من المحن والبلاء.

ولم يكتف هؤلاء بهذا التهكم بالمصلحين بل غدوا يطلقون كلمة وهابي[1] على كل من يدعو المسلمين إلى وجوب الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الصحابة والتابعين وطلب الدليل على كل حكم فقهي تلبية لرغبة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم الذين كانوا ينهون متبعيهم من أتباعهم قبل معرفة صحبتهم ودليلهم من القرآن والسنة الصحيحة.

المحنة الثانية:

أسس القاسمي حين شبابه جمعية جمع فيها جميع علماء دمشق البارزين أمثال الشيخ عبد

---

(١) ومن طريف ما يروى بهذه المناسبة أن الأستاذ فارس الخوري كان يتردد بعض الأحيان على الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار وغيرهما، فكان بعض الجامدين ينعتونه بالوهابي بسبب صحبته لهؤلاء المصلحين مع أنه نصراني.

الرزاق البيطار والشيخ سليم سمارة والشيخ سعيد الفرا والشيخ أمين السفرجلاني والشيخ مصطفى الحلاق وغيرهم، وعين يوماً مخصوصاً يجتمعون فيه لقراءة كتاب: «رحمة الأمة» للشعراني ومناقشته بحرية وشجاعة متناهيتين.

فثار لهذه الحركة أرباب المناصب وأشعلوا قلب الوالي ناظم باشا حقداً عليه، وقالوا له: إن هذا الشيخ يعمل ضد الحكومة العثمانية وضد المذهب الحنفي: مذهب الدولة، كما يدعو إلى مناقشة الأئمة الأربعة، فألف الوالي مجلساً برآسة المفتي وأحضر العلماء الذين كانوا يجتمعون. وأخفوا الأمر خوفاً من نفيهم وسجنهم. ولكن جمال الدين ثبت بكل شجاعة. ولما سئل: هل كنتم تجتمعون؟ أجاب: نعم! فقيل له: بماذا كنتم تبحثون؟ قال: هل يبحث العلماء إذا اجتمعوا بغير العلم ومسائله؟!

فقالوا له: بلغنا عنك أنك تريد أن تجتهد[1] وتؤسس مذهباً خامساً تسميه بالمذهب الجمالي. قال لهم: إنني أتمنى أن تكون المذاهب الأربعة ثلاثة، والثلاثة اثنين، والاثنين واحداً لجمع كلمتهم. فهل يتصور أن أزيد عليها خامساً لتفريق المسلمين وجعلهم شيعاً وأحزاباً!.

ارتسمت الحيرة على وجوه المفترين، ووجدوا أنفسهم أمام عالم قوي الحجة، حاضر البديهة، سريع التخلص، ولكنهم بدلاً من الرجوع إلى الحق والهدى بعدما تبين لهم، كما هو مفروض من أهل العلم! لجأوا إلى سلاح العاجز المستبد فأغروا الوالي بسجنه في النظارة، فجاء أحد المصلحين إلى دار الوالي ليلاً وأقنعه أن سجن القاسمي ظلم، وهو لم يقم ضد الحكومة! فأطلق سراحه صباحاً وأقيمت له وليمة من قبل القاضي - وكيل الوالي - دعا إليها جميع هؤلاء المتهمين، يعتذر إليهم مما وقع ويعلمهم أن الحكومة راضية عن أعمالهم.

كان رحمه الله لا يخاف في الحق لومة لائم، ولا يخشى أحداً إلا الله، وقد سجل هذه المحاكمة في رسالة سماها: «حادثة المجتهدين» لا تزال مخطوطة ونظم قصيدة بمناسبتها سنتعرض لها حين الكلام عن شعره. وكان يقول كلمته: «ليفعل أعدائي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة».

وقد كان الخصوم يبعدون أمثال القاسمي وغيره من العلماء الأفاضل، من دوائر الدولة.

---

(١) جاء في كتاب الفتوى في الإسلام للشيخ القاسمي (ص ١٦) نقل عن العلامة السفاريني الحنبلي في بعض رسائله عن العلامة ابن حمدان أنه قال: إن الإجتهاد المطلق الآن أكثر منه في الزمن الأول، لأن الحديث والفقه قد دوّنا، وكذا ما يتعلق بالإجتهاد.

وقد زار ناظر العدلية أي وزيرها دمشق، ودخل محاكمها، فوجد من جهل موظفيها ما أدهشه وقال لمفتي دمشق:

ألا يوجد علماء في دمشق؟

فأجاب: يوجد كثيرون.

فسأله: من هم؟

فذكر له في مقدمتهم القاسمي وعبد الرزاق البيطار.

فقال: إذا كان يوجد لديكم أمثال هؤلاء، فلماذا لا تقدمونهم ليستلموا زمام الأحكام في المحاكم.

فخجل المفتي ولم يستطع أن يذكر أن سبب إبعادهم سلفيتهم وحريتهم. وقال: إنهم لا يعرفون الأنظمة الحكومية. فقال له ناظر العدلية:

إنهم ما داموا علماء فبقدرتهم بمدة وجيزة أن يسبقوا كل هؤلاء الجهلة الموجودين الآن في المحاكم!

كان الله في عون المصلحين، كم يلاقون من أهوال وخصومات من قبل المستغلين والخرافيين الذين الذين لا يفقهون من الإسلام إلا اسمه، فهم يعرضون هذا الدين العظيم عرضاً زائفاً فيه السخف وفيه الإستسلام والخضوع مما يخدم أغراض الإستعمار، ويسبب للمسلمين الجمود والفناء، حتى يستعذبوا الركود والخمول. قد أبعدهم مدعو العلم عن روح الإسلام الوثابة التي تأبى الضيم ولا ترضى إلا بالقمة.

فما أعظم مسؤولية هؤلاء الجامدين والإنتهازيين أمام الله سبحانه وأمام التاريخ، ما داموا يتركون الأمة الإسلامية في الحضيض، ويمنعون نفحات المصلحين ونداءهم من الوصول إلى هذه الأمة التي قتلها التقليد وأبعدها عن الإسلام الصحيح الكفيل بعزتها وقوتها.

إنهم يؤخرون تقدم قافلة الإصلاح ولكنهم أضعف من أن يمنعوها من السير وتحقيق أغراضها السامية ما دام المصلحون ـ وهم ورثة الأنبياء ـ يتصفون بالإخلاص والجرأة، ويتحلون بالحكمة والتدبر، فكم كان لمواقفهم المشرفة من آثار في تحطيم معاقل الخرافة والبدعة، وهدم صروح الظلم والظالمين.

لمحة عن حالة عصره:

ولنستمع فيما يلي إلى العلامة محمد كرد علي رحمه الله يصف العصر الذي جاء فيه القاسمي:

. . . وإلى عصر ابن تيمية الذي ناله في مصر والشام حتى قضى في سجن دمشق شهيد الإصلاح إلى أن جاء القرن العاشر والذي يليه من القرون، وقد أصبحت العلوم رسمية، والمدارس صورية، والأوقاف المحبوسة على الشيوخ مأكولة مهضومة ـ منذ جرى كل هذا ـ والأمة لا تكاد تفرح بعالم حقيقي يكسر قيود التقليد ويقول بالأخذ في كل علم، فندر النبوغ لأنه ندر أن يلقى العالم ما ينشط عزيمته. وكان قصارى ما تسمو به الهمة إلى أخذ نفسه بمذهب التعلم والتعليم أن يقتبس من كتب الفروع ما لا يخرج عن مألوف معاصريه. ومن حكّم عقله في بعض المسائل كان اتهامه بأمانته من أيسر الأشياء، وطرده من حظيرة الحظوة (الحظوة لدى العامة، ومن سموا أنفسهم بالخاصة) من الأمور المتعارفة. أما التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق. فهذا لا يخلو منه عالم يريد أن يخرج بالناس من الظلمات إلى النور.

ولكن إرادة المولى سبحانه قضت بأن لا تحرم هذه الأمة من أعلام يصدعون بالحق، فيجددون لها أمر دينها، ويستطيبون الأذى في إنارة العقول، والرجوع بالشرع إلى الحد الذي رسمه الشارع وأصحابه والتابعون والأئمة الهادون المهديون. ومن هؤلاء المجددين نابغة دمشق فقيدنا العزيز السيد جمال الدين القاسمي الذي يعرفه قراء هذه المجلة بما ينشره في سنيها الماضية من آثار علمه وأدبه، فقد قضى حياة طيبة، ولم يعقه عن الإشتغال ما لقيه من تثبيط المثبطين في أول أمره، وتنقيص الحاسدين في أواسط عمره ممن لا يخلو منهم مصر ولا عصر، خصوصاً في بلاد يستمد منها كل شيء من ولاة أمرها[1].

هذه حال العصر الذي جاء فيه القاسمي، فأخذ يدعو إلى مدرسته الفكرية السلفية بثلاثة أمور: دروسه ومؤلفاته وحسن أسوته. وكان يعاونه في دعوته الأساتذة: الشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري.

ويمكن أن نقول أن السلفية اليوم في بلاد الشام مدينة للقاسمي إلى حد ما الذي أحيا بذرتها بعدما كادت تموت بعد ابن تيمية وابن القيم.

وكان من طريف توجيهاته أنه كان يسعى لنشر كتب الأئمة الأربعة أنفسهم لا مقلديهم وكان يقول: إن من يطلع على كتب هؤلاء الأربعة رحمهم الله يرفض التقليد لأنهم أمروا تلامذتهم بالإجتهاد وأن لا يجعلوا كلامهم حجة، ثم استشهد بكلام المزني في كتاب الأم للشافعي، فإنه قال: «أنقل لكم كلام شيخي الشافعي لا لتأخذوا به، فإنه كان نهانا عن تقليده، فيقول: يجب الإحتياط بالدين والأخذ بالكتاب والسنة».

---

(١) المقتبس.

وكان القاسمي يقول: إن مذهب الحنفية هو الآن مذهب تلميذيه أو أحدهما على الغالب، وقد خالفا إمامهما في حياته في كثير من أقواله، فكان رحمه الله يسر بذلك ويشجعهم عليه، وهذه هي طريقة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم[1].

ولم يفارق القاسمي حياته التي كانت قصيرة وعريضة إلا وترك السلفية في طريق الإزدهار والنمو يحملها بعض تلاميذ له سعوا لنشر دعوة أستاذهم وصرف أكثرهم عن الدعوة، الحرص على وظائفهم من أن يتعرضوا للعزل والحرمان وخاصة في دوائر الأوقاف التي أصبحت ـ ويا للأسف ـ معقل الجامدين والخرافيين على الغالب الذين يحاربون كل مصلح ومجدد، خشية على مصالحهم من أن تتعرض للضياع. وهكذا باعوا دينهم بدنياهم.

وقد رثاه تلميذه محمد جميل الشطي مفتي الحنابلة رحمه الله بقصيدة رائعة منها هذه الأبيات:

مهلاً عداة المصلحين عدمتكم ... إني لكم والله غير مسالم
ها نحن بالمرصاد وأنصار الهدى ... ندعو إلى الجولان كل مزاحم
إن كان مات القاسمي فإنكم ... سترون منا كل يوم قاسمي
نحمي طريقته ونرعى عهده ... في الحق لا نخشى ملامة لائم

ذكر تلميذ القاسمي محمود البيطار أن أباه غضب لملازمته دروس القاسمي، فأمره بتركها وهدده بطرده من داره مع أمه وإخوته الصغار، فلم يقبل، وخرج عنه مع من ذكرنا، وكان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، فاستأجر داراً ومحلاً لعمل السكاكر، فوفقه الله كثيراً. ولكن والده ندم على ما فعل لحاجته إلى ابنه في عمله، فقصده بعد مدة وقال له: يا بني ارجع إلى داري وأعني في عملي فإني قد كللت، فقال له ابنه: على شرط أن تسمح لي بملازمة أستاذي القاسمي، فقال له أبوه: قبلت، قبلت. ثم قال له: يا والدي ألم آخذك وأسمعك دروسه فلم تنكر عليه شيئاً، فسكت الأب وخجل من تعصبه!

نستنتج من القصة السابقة نتيجتين: الأولى صورة عن عصر القاسمي وتعصب الخاصة والعامة، والثانية حماسة وتضحية بعض طلاب الجمال القاسمي.

بمثل هذه الروح المختلطة بالدم واللحم من القاسمي وطلابه تنشر المبادىء ويتم النصر للدعوات ويزول الجهل ويحيي العلم.

---

(١) راجع مقدمة كتاب صفة صلاة النبي لأستاذنا المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، لتطلع على آراء الأئمة الأربعة رحمهم الله في النهي عن تقليدهم (الإستانبولي).

وقد كان القاسمي يقول: لا بقاء للجهل ما دام ناصرو الحق قد أوقفوا أنفسهم لنصرته، ولا شك أن الله ينصر من ينصر كتابه وسنة نبيه. وكان يقول أيضاً: إن الله وصف لنا تقهقر الباطل وانتصار الحق بقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[1]. وقد كان يفسر هذه الآية بقوله: إن الله شبه الحق بالقذيفة، والباطل بالإنسان وقد أصابت القذيفة أم دماغه، فإذا هو زاهق أي تخرج روحه شيئاً فشيئاً إلى أن يلفظ النفس الأخير غير مأسوف عليه!

وقد علق على الآية السابقة: أنها بشارة من الله تعالى للسلفيين بأن العاقبة لهم إذا ثبتوا على دعوتهم وتحملوا ما يصيبهم من محن. قال سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

أثره في مجتمعه:

وقال الإمام رشيد رضا:

«ظهر الشيخ جمال الدين في الشام على حين فترة من العلماء، فقد كان من أدرك من كبار شيوخها آخر الذين عنوا بدراسة الكتب المعهودة التي يطلق على مدرسيها لقب (علماء) على أن العلم الصحيح ـ وهو العلم الإستقلالي المبني على الدليل ـ كان قد حُجر عليه وحكم بتحريمه من عدة قرون، فلم يكن أحد يشم ريحه ولا يشيم وميضه إلا قليلاً، وصار الناس كالخفافيش لا يفتحون في هذا النور عيناً، ولا يجيلون في شعاعه فكراً. ظهر الفقيد وفي دمشق الشام أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئاً، فاتهم العلم ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده، تبعاً للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده، فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالماً يتصدى للتدريس والتصنيف، ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد، فإذا تصدى لذلك أحد يكيدون له المكايد، وينصبون له الحبائل، ويبغونه الفتنة، ويجعلونه في موقف الظنة، فيسعون به إلى الحكام[2]، أنصار كل منافق، ويهيجون عليه العوام، أتباع كل ناعق. فماذا يعمل العالم المصلح بينهم؟

إذا كان عمل القاسمي للإصلاح وتجديد علوم الدين صغيراً في نفسه، فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه، فما القول فيه إذا كان عمله كبيراً في الواقع، وقد عظم المطلوب وقل المساعدة؟»[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٨.

(٢) لا شك أنه يعني حكام ذلك الزمان، وإلا فإن غير قليل من الدعوات كانت بتأييد بعض الحكام والأمراء.

(٣) المنار ج ٧ م ١٧ ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

لم يكن قبل الأستاذ القاسمي رحمه الله أثر يذكر للدعوة السلفية. حتى أن الحنابلة كانوا يخشون من المتعصبين على آثار ابن تيمية من التلف، فكان الناس بين مقلد أو متصوف أو طرقي، فكان العالم منهم لا يوقع اسمه إلا مقروناً بتقليد مذهب وانتساب لطريقة، كأن يقول أحدهم عند التوقيع: كتب هذا فلان الشافعي مذهباً، القادري مسلكاً، الأشعري عقيدة. قال تلميذه: لقد رآني مرة وقعت اسمي فقلت: كتب هذا حامد التقي لقباً، الحسيني نسباً، السلفي مذهباً. فغضب وقال لي: ارفع هذا ولا تك متميزاً عن المسلمين واقتد بتوقيع ابن تيمية في جميع كتبه. فكان يقول: كتبه أحمد بن تيمية.

وخلاصة القول في أثر القاسمي، أنه رحمه الله لم يأل جهداً في نشر الوحدة السلفية بقلمه ولسانه في ربوع الشام، ولكن لم يظهر أثره في هذه البلاد كما ينبغي لقلة مناصريه وكثرة معاديه الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق الدعوة وإخفاء معالمها، لا سيما وأن الصلة كانت منقطعة بين مصر والشام، ومصر التي كانت الدعوة فيها آخذة بالظهور والقوة بفضل جهود المصلحين أمثال محمد عبده والسيد رشيد رضا وغيرهما.

وما أحرانا أن نختم هذا الموضوع بأبيات من قصيدة للشاعر المبدع خير الدين الزركلي رثاه بها يوم وفاته، يوضح فيها مبلغ نجاحه في دعوته:

ظهرت للناس والألباب مظلمة	تشكو إلى الله ما ألقت بها الحقب
والدين قد حجبت عنا حقائقه	غشاوة الجهل والتمويه والكذب
ينتابه من أذاة الجاهلين به	ما كل قلب له من لوعة يجب
كم مدع نصرة الدين الذي عظمت	آياته كاد منه الدين ينشعب
من كل أخرق، في أخلاقه شرس	في عقله لمم، في قلبه وصب
أحنوا على الدين إحناء الذئاب على	سرب من الشاء أعيى حيله السغب
تعصبوا لأضاليل ادعوا كذباً	بأن دين الألى يأبونها خرب
ما زال يعمل في أكبادهم قلم	مسير منك بادي الحد مرتهب
له إذا انهل في ألبابهم أثر	تعنو القناة له والصارم الذرب
مؤيد ببراهين له خضعت	جباههم واغتدت بالخزي تنتقب
مؤزر بقوى العلم الذي بُهرت	منها النهى وعراها الذعر والرعب
حتى أضأت لنا منهاج شرعتنا	وبات من شاء شراً وهو مكتئب

أسباب نجاحه:

جماع الأسباب التي نجح بها القاسمي طهارة نفسه من المطامع الأشعبية وشغفه بالعلم

ونفعه في إنارة القلوب واعتقاده أنه منج في الدنيا والآخرة، فهو لم يجعل الدين سلماً إلى الدنيا وجسراً موقتاً يجتاز عليه لحيازة مظهر خلاب والتصدر في المجالس بفاخر الهندام وبراق الثياب، بل فرغ قلبه ووقته للعمل النافع، فبورك له بساعات عمره القصيرة ويا للأسف! ولو عددنا ما كتبه من مصنفاته وقسناه بالنسبة لهذا العصر الذي أضحت فيه بضاعة العلم مزجاة بائرة، لما قل عن اللحاق بالمكثرين من التأليف في المتأخرين أمثال السيوطي وابن السبكي وأحزابهما مع ملاحظة ما بين العصور والبيئات من الفوارق.

تذرع القاسمي بعامة ذرائع النفع لهذه الأمة، فكان إماماً في دروسه الكثيرة، إماماً في محرابه ومنبره ومصلاه، رأساً في مضاء العزيمة، رأساً في العفة، وهذه الصفة هي السر الأعظم الذي دار عليه محور نبوغه، لأنه لو صانع طمعاً في حطام الدنيا لما خرج عن صفوف أهل محيطه، ولكان عالماً وسطاً يشتغل بالتافهات ويعيش في تقية ويموت كذلك.

كان أجزل الله ثوابه إذا لقيه المماحك في أحد المجامع عرضاً أو غشيه في دروسه وبيته ناقداً أو ناقماً، علمه من حيث لا يشعر وهداه إلى المحبة بلين القول، فإذا أيقن أنه من المكابرين المموهين أعرض عنه وقال: سلاماً! ولذلك لم يلق ما لقيه أشداء العلماء والفلاسفة في العصور الماضية من الإرهاق والأعنات أمثال ابن حزم الأندلسي لأنه كان يتلطف في المناظرة وإقناع المخالف، فإذا رأى المناقش بمعزل عن الفهم سكت عنه. نعم كان مثال التلطف في بث الفكر، فلم يصك به - كما قيل - معارضه صك الجندل وينتشقه متلقفه انتشاق الخردل.

قام الأستاذ في عصر زهد الناس فيه في العلوم الدينية إلا قليلاً، فأعاد إليها في هذه الديار بنور عقله، شيئاً من بهائها السابق، ولقد كان يجتمع به الموافق والمخالف، فما كانا يصدران عنه إلا معجبين بعقله، مقرين بفضله، معترفين بقصور كثير، حتى من المشاهير على إدراك شأوه: يخلب الألباب ويستميل العقول، فكأنه خلق من معدن اللطف ورقة الشمائل. لم تجد الغلظة سبيلاً إلى قلبه، ولا الفظاظة أثراً في كلامه وقلمه، ولا عجب إذا كثر في آخر أمره أنصاره، وعشقته النفوس فأكبرت الخطب فيه. جاء في أقوال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه.

دخل عبد اللطيف البغدادي فيلسوف الإسلام على القاضي الفاضل فقال: رأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه. وهذا التعريف يصدق

من أكثر وجوهه على الشيخ القاسمي، فإنه كان نحيل الجسم كبير الروح، ولو تهيأ لجمال الدين مثل صلاح الدين لسرت أفكاره وأكثر مما سرت، وراقت أسفاره أكثر مما وفق إليه، ولكن إذا عظم المطلوب قل المساعد. وقديماً زكا غرس العلم في الشرق في ظل الملوك والأمراء، واليوم يزكو في الغرب في حمى الجامعات والمجامع والجمعيات. والعلم مذ كان، محتاج إلى العلم.

برز الفقيد الراحل وأي تبريز في علوم الشرع وما إليها، ولم يعنه النظر في العلوم، فألم بأكثرها إلماماً كافياً لتكون له عوناً على فهم أسرار الشريعة. أما وقد جمع الفضيلتين، فلا تجد لكلامه مسحة من الجمود المعهود لكثيرين ممن يقتصرون على العلم والعلمين ويعدون ما عداهما لغواً. فهو عالم ديني كامل ولكنه كان يقرأ العلوم المدنية ويطالع صحفها ومجلاتها وكتبها الحديثة، كما يطالعها المنقطعون لهذه العلوم وزيادة، ولا ينكر شيئاً يقال له علم أو فن، ولذلك لم يمجه العصريون ولا غيرهم.

ربما قال من لم يعرفه أن هذا كلام صديق فجع بصديق تسللت الصداقة بينيهما منذ نحو ثلاثين عاماً، وعين الحب رمداء أما أنا فأحيل المعترض إلى كتب الشيخ وقراءة بعض ما طبع منها وتحكيم العقل والإنصاف، وأنا الضامن بأنه لا يلبث أن يساهمني قولي ويوقن بأن المرحوم جود تأليفه التي تنم عن عقله وعلمه أكثر مما جودها كثير من متأخري المؤلفين من بعد عصر السيوطي ممن شهد لهم بالإجادة، ولو سمحت له الحال أكثر مما سمحت، ومتع بحرية القول والعمل أكثر مما متع، لجاء منه أضعاف ما جاء، ولكن ضيق العيش وضيق المضطرب لا يرجى منهما أكثر مما تم على يد فقيدنا العظيم من الأعمال والآثار. وقد أغلقت دونه أبواب الدواعي والبواعث رحمه الله وبارك لنا فيمن خلف من مريديه ومعاصريه ومن ساروا بسيرته حتى لا نقع تحت مضمون الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1].

ابن تيمية في نظر القاسمي

كان رحمه الله مولعاً بالمصلح الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية، وبمؤلفاته وفتاويه، فشرع في أول عهده بنشر آثاره، فنشر مجموعة من رسائله في مجلدين، وكان دائماً ينوه بفضله في دروسه ويستشهد بتفسيره بالنقل عنه، ويعجب كل الإعجاب بمبلغ صبره على المحن التي لم يلاق مثلها أحد قبله ولا بعده إلا نادراً[2].

(١) محمد كرد علي: المقتبس.

(٢) راجع كتابنا «ابن تيمية بطل الإصلاح الديني» وهو من طبع المكتب الإسلامي.

وقد كان الجمال القاسمي معجباً برسالة من عالم أرسلها إلى السلفيين في دمشق بعد موت ابن تيمية يحضهم على العناية والرعاية بابن قيم الجوزية التلميذ الخاص لابن تيمية الذي لم يفارقه في السجن ولا خارجه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت ابن تيمية.

قال صاحب هذه الرسالة للسلفيين: «شجعوا ابن القيم لينقل لكم كل ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية، لأنه لا يعرف أحد أن يقرأ خطه سواه[1]، وهو أعلم تلاميذه بكتبه وآثاره، واعلموا أنه سيصير لهذه الآثار شأن عظيم وسبب لإعادة مجد الإسلام، وستكون مرجعاً في المستقبل لمعرفة الإسلام الصحيح.

وقد طبع القاسمي هذه الرسالة نظراً لخطورتها وإعلاءً من شأن شيخ الإسلام.

كما نشر ردَّ ابن تيمية على الشيخ مصطفى البكري المصري في عصره بعد أن تكبد مشقة عظيمة في جمع هذا الرد من المخطوطات والمطبوعات[2].

ومهما كان حب القاسمي لابن تيمية، فإنه لم يبلغ به حد التقديس والإقرار له بالعصمة، وقد كان يقول لتلميذه حينما يلفت نظره لمخالفته آراء ابن تيمية المعجب به: ومن قال لك أنني مقلد لابن تيمية؟ وهو يكره التقليد، وإنما أدافع وأناضل عن شيخ الإسلام وأنشر رسائله وكتبه وفتاويه لأنه مجتهد وغير مقلد وأقواله أقرب إلى الصواب من غيره لأنه جاء متأخراً عن الأئمة، وزاد اطلاعه على اطلاعهم وناقشهم جميعاً.

وقد كان يلوم ابن تيمية لحدته أحياناً، وخاصة مع العالم الشهير أبي حيان الأندلسي صاحب تفسير البحر ومختصره النهر المطبوعين معاً الذي كان يحبه حباً عظيماً ويدافع عنه في ديار الأندلس، وقد مدحه بقصيدة رائعة قال في مطلعها:

قد عثى في عرضه قوم سلاط ... لهم من بحر جوهره التقاط[3]

---

(١) هذه مبالغة مع الإعتراف برداءة خط شيخ الإسلام بسبب سرعته، وما كان يحيط به من فتن.

(٢) هذا ما كتبه الأستاذ الإستانبولي، ولم أعرف الرد المذكور، ومصطفى البكري المشهور عند المتصوفة وصاحب الرسائل كانت وفاته سنة ١١٦٢ هـ؟؟.

(٣) هنا وهم لا بد من تصحيحه، فإن هذه القصيدة هي للعلامة عمر ابن الوردي انظر الرد الوافر ص ١٦٣.
وأما قصيدة أبي حيان لمدح شيخ الإسلام فهي:

لما أتينا تقي الدين لاح لنا ... داع إلى الله فردٌ ما له وزرُ
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمرُ
حبر تسربل منه دهرهِ حبَراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدُّررُ
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تَيْم إذا عَصَتْ مضرُ
فاظهر الحق إذ آثاره دُرست ... وأخمد الشر إذ طارت له شررُ

زار هذا العالم دمشق قاصداً ابن تيمية، وتباحث معه في النحو في مسألة، فخالفه شيخ الإسلام، فأجابه أبو حيان: قد قال بما قلت سيبويه، فأجابه ابن تيمية: إن سيبويه قد أخطأ في عشرين مسألة لا يعرفها مثلك، فتركه أبو حيان وهجره مدة ثم عاد لسيرته الأولى من الدفاع عن شيخ الإسلام.

رحلة القاسمي إلى مصر

في عام ١٣٣١ رحل الأستاذ جمال الدين القاسمي إلى مصر يصحبه الشيخ عبد الرزاق البيطار بغية الإجتماع برجال الإصلاح أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ورفيق العظم وأحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا وغيرهم.

وما كاد الأستاذان يصلان إلى القاهرة حتى سارعا إلى مقابلة الأستاذ الإمام محمد عبده الذي هب لاستقبالهما وفي الحال استصحبهما إلى داره في عين شمس وعني بهما عناية عظيمة.

وقد باحثه القاسمي في عدة مسائل منها:

١ ـ هل يسوغ ذكر الإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم في الآيات التي جاءت مجملة؟.

فأجابه الإمام محمد عبده:
«إن القرآن وصل إلينا متواتراً كاملاً في جميع ما دعا إليه، وكتب غير المسلمين وصلت إلينا وإليهم ناقصة، فلا يتم كامل بناقص..».

ولا شك أن الإمام محمد عبده يقصد بذلك النهي عن الإسرائيليات المخالفة للعقل والشرع، وفيما عدا ذلك فيجوز النقل عنها لقوله ﷺ ـ كما رواه البخاري ـ «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية عند غيره ـ «فإنه كان فيهم أعاجيب».

٢ ـ وقد سأل القاسمي الإمام: أنني أقوم بإلقاء دروس وعظ العامة. فأي كتاب تختاره لي؟

فأجابه الإمام: إحياء علوم الدين للغزالي[1] بعد تنقيحه. وفعلاً سارع القاسمي إلى

= كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الإمام الذي قد كان ينتظرُ
انظر الرد الوافر الترجمة ٢٧ بتحقيقي وهو من طبع المكتب الإسلامي. ـ زهير ـ.

(١) وأفضل من كتب الغزالي كتب ابن الجوزي الذي اشتهر بالتأثير على العامة كثيراً. وللأستاذ محمد رشيد =

اختصاره وسماه موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين وقد قرر علماء الأزهر تدريسه وطبع مرات. غير أنه لم يحقق أحاديثه، ففيه كثير من الضعيف.

وقد حدث القاسمي الإمام محمد عبده عن نشاط الحركة السلفية في دمشق في عهد العثمانيين حيث كان كثير من العلماء شبه نيام، فسر محمد عبده بهذا النبأ وحدث عنه إخوانه في مصر معتزاً بجمال فقال: «لقد بلغنا أنه وجد في دمشق دعوة سلفية تدعو إلى العمل بالكتاب والسنة ونبذ التقليد..».

ولا ننسى أن نذكر احتفاء الشخصيات المصرية البارزة من الكتاب والعلماء وأرباب الصحف بالقاسمي، فإنهم ما كادوا يعلمون بخبره حتى أقاموا له حفلة تكريمية كبرى، خطب فيها الخطباء وأشادوا بذكر فضائل القاسمي وجهوده.

وصدف أن الرأي العام كان مشغولاً بمناقشة موضوع ديني هام، واشتدت المناقشة بين المؤيدين والمعارضين، ولما قدم الأستاذ القاسمي قبلوه حكماً بينهم، وقالوا عنه:
«لقد اتفقت علماء مصر وسورية على الإقرار بفضله، لذلك جعلنا جوابه فصل الخطاب»، فكتب الأستاذ القاسمي مقالاً أقنع به الجميع.

ويروي الأستاذ القاسمي طرفة سُر بها كثيراً تدل على ما بلغه الشيخ الإمام محمد عبده من نفوذ في نشر الإصلاح، فقد سأل القاسمي أحد المقلدين عنه، فلم يجرأ على نقده وقال: «يضيق صدري ولا ينطلق لساني» خوفاً من نفوذ الإمام.

= رضا رأي متطرف قليلاً في كتاب الأحياء نذكره فيما يلي: وقال في كلمته التي رثى بها القاسمي في المنار (ج ٧ م ١٧ ص ٥٥٩) يتحدث عن الغزالي وإفادة القاسمي منه فقال:
«رغب بعض المدرسين في قراءة: كتاب إحياء علوم الدين، فقلب (القاسمي) أوراقه كلها أو بعضها، فلم يقع اختياره على شيء يقرأه منها، إلا بعض حكايات الصالحين (وكثير منها خرافي) وبعض الآثار في فضائل الأعمال (وكثير من أحاديثه ضعيفة) فهو لم يستفد من علم الغزالي مسألة ما، ولم يعقل من خصائص الكتاب شيئاً. ذلك بأن هم ذلك المدرس كان محصوراً فيما رأى عليه أمثاله، وهو انتقاء ما يرضي الناس ويلذ لهم ولا يذكرهم بشيء من جهلهم ولا يكشف لهم الستار عن شيء من عيوبهم، ولا ينذرهم سوء عاقبة إفراطهم وتفريطهم»
وليس الإمام رشيد رضا وحده في هذا الرأي في الغزالي الذي سماه المقلدة بحجة الإسلام، فإن هناك كثيراً من العلماء قد حملوا عليه حملة شعواء منهم الإمام ابن الجوزي والإمام ابن تيمية وأبوبكر بن العربي. وقد قال ابن الجوزي في مقدمة تلخيصه للأحياء: «فاعلم أن في الأحياء آفات لا يعلمها إلا العلماء وجلها الأحاديث الموضوعة والموقوفة وقد جعلها مرفوعة».
وانظر «مختصر منهاج القاصدين» وهو من مختصرات الأحياء. طبع المكتب الإسلامي.

آثار المجاهد

منشوراته ـ مؤلفاته ـ آراؤه ـ مكتبته

طلابه ـ بيانه وأسلوبه ـ شعر الأديب

مذكرات المفكر



آثار العالم ومؤلفاته:

أ ـ آثاره: نشر ثلاث مجاميع، كل مجموعة تحتوي على عدة رسائل.

المجموعة الأولى: تحتوي على عدة رسائل منها رسالة للشيخ محيي الدين ابن عربي اختصرها من الفتوحات المكية على الرغم من اختلاف مشربيهما، وقد نشر هذه المجموعة من أجل هاتين العبارتين:

أ ـ يقول ابن عربي: «لا يجوز عندنا تقليد حي ولا ميت».

ب ـ وقال أيضاً في الكلمة الثانية: «ولا يجوز عندنا ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً وخرج من دين الله!!».

ومنها رسالة للإمام الطوفي الحنبلي في المصالح المرسلة، وكان الجمال القاسمي يقول عنها: إنها أهم رسالة تنور الأبصار والبصائر، فهي تثبت أن الدين الإسلامي قد راعى المصالح وجوداً وعدماً.

المجموعة الثانية: تحتوي على أربعة متون في أصول الفقه على المذاهب الأربعة.

المجموعة الثالثة: تحتوي على رسالة في أصول التفسير، وأصول الفقه على المذهب الظاهري لخصها من كتاب المحلى لابن حزم.

وهذه المجاميع طبعها بعد أن حققها وشرحها شرحاً وافياً.

ونسخ من المكتبة الظاهرية كتاب «مختلف الحديث لابن قتيبة» يبحث في الجواب عن الأحاديث المتعارضة وطبعه، وقد كان يقول عنه أنه تكلف الجمع بين بعض الأحاديث المتعارضة مع أن بعضها قد يكون ضعيفاً، وربما نشر هذه الرسالة لعبارة فيها للشعبي يسخر بمن يرد الحديث الصحيح بالقياس.

ونشر كتاب العلم الشامخ في إثار الحق على الآباء والمشايخ في مطبعة المنار وهو من

تأليف الشيخ محمد المقبلي اليمني يحتوي على عدة فتاوي في المذاهب الأربعة في الطعن بكثير من المتصوفة ومحاربتهم للقرآن بنصوص كتبهم الصريحة.

ولهذا الكتاب قصة ذكرها القاسمي.

قال: كان يوجد في دمشق نسخة خطية واحدة موجودة في مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله، فاستعارها منه أحد الأمراء الذي كان من غلاة المتصوفة، فقد قال في كتاب له في قوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ قال في شرحها عند قوله تعالى من نفسك: (التي هي الله حقيقة) لأنه يعتقد أن العبد هو عين ذات الله حسب عقيدة وحدة الوجود وهي مناقضة لعقيدة أهل القبلة وكل عقيدة جاء بها نبي ورسول.

أجل: استعار نسخة العلم الشامخ الوحيدة في دمشق ودعا جميع متصوفي عصره إلى وليمة في قصره وأحرقها أمامهم في النار.

تألم القاسمي من هذا الحادث لاعتقاده أن هذا العمل من الأمير يميت الحقيقة ويحيي الباطل، ولكنه بلغه من الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله أنه يوجد من هذا الكتاب نسخة ثانية في مكتبة القدس، فأرسل القاسمي من نسخها ثم صححها وأرسلها إلى المرحوم الشيخ رشيد رضا وطبعت.

آداب الدارس والمدرس: كنت أظن أن هذه الرسالة من تأليفه، فأحببت أن أشرحها بشيء من التفصيل بحكم مهنتي واختصاصي، ولكن تبين لي بعد ذلك أنها ملخصة عن العلامة محيي الدين النووي رحمه الله وهي مذكورة في شرح المهذب.

وهذه الرسالة وإن كانت ليست للقاسمي كما ذكرنا، فإن إحياءه لها دليل فضله، وفيما يلي نذكر له كلمة في خاتمتها:

وهذه النبذة من آداب المدرس والدارس أو المعلم والمتعلم مختصرة بالنسبة إلى ما جاء فيها وصف في أبوابها، وقد أردت إحياء ما قاله الأئمة المتقدمون في هذا وتطرية ذكره لما فيه من الفوائد والحكم والنصائح التي هي نتيجة ما أوصى به السلف أمام استبحار العلوم ونضارتها في حضارة القرون الأولى. فليحرص المدرس والدارس عليها، وليحافظ المعلم والمتعلم على التخلق بها، والإهتداء بها، فثمرة العلم العمل، وبالله الإستعانة وعليه المتكل.

ب ـ مؤلفاته: مؤلفات القاسمي تحوم حول بيان حكمة الدين وأسراره، والحث على

(١) انظر مقدمتي لكتاب «الكلم الطيب» فإن فيها شيء من سيرة هذا الأمير مع المخطوطات ـ زهير ـ.

التمسك بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهجر التقليد ومحاربة البدع والضلالات.

وكان كلما أخرج مؤلفاً من مؤلفاته انبرى الكتاب والعلماء إلى تقريظه والثناء عليه. وكان يقول: إن نشر رسالة واحدة مفيدة للأمة خير من كذا وكذا خطب ومحاضرات بين فئة جاهلة ومشاغبة، فإن المعارض لا بد إذا بلغه أنه قد طبع شيء ضده أن يطالعه ويرد عليه، فإذا أنصف رجع إلى الحق من حيث لا يشعر، وهذه بعض مؤلفاته، وكان يراعي في كتابته التبسيط ووضع الفواصل والإشارات تسهيلاً على القارىء.

١ ـ محاسن التأويل: وهو في تفسير القرآن الكريم كاملاً، وقد امتاز على سائر التفاسير الأخرى بأنه لم يكن مقلداً لواحد منهم، وإنما ينقل من كل تفسير خير ما فيه على طريقة السلف بعيداً عن التعطيل والتشبيه.

كما امتاز تفسيره بالنقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية والإستشهاد بفتاواه ومحاسن آرائه.

وكان له مشرب خاص، فلايقول: أقول إلا نادراً، وإنما يذكر آراءه بالنقل عن غيره ممن يثق بعلمه. لنأخذ لذلك مثلاً: كان ينقل آراء أبي مسلم الأصبهاني القائل أنه لا نسخ في القرآن وأنه يحتمل الجمع بين كل آيتين نسخت إحداهما الأخرى. فالقاعدة المسلمة عند الأصوليين بأن الأصل في القرآن عدم النسخ(١).

فكان ينقل هذا عن أبي مسلم الأصبهاني. وكان يقول: قاتل الله التعصب الذي أزال تفسير هذا العالم من الوجود، فما المانع أن يوجد وينقد ويؤخذ خير ما فيه؟

وقد كانت تشترى كتبه من الوراقين لتحرق، فلم نعثر على أقواله إلا في تفسير الرازي.

وكان رحمه الله يأخذ ببعض آراء المعتزلة إذا سندها الدليل، ولا يعتقد أن أحداً معصوم غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم(٢).

وكان في تفسيره يدعو إلى الإهتداء بالقرآن واستنباط القوانين التي لا تخطر على البال

---

(١) هذا صحيح، ولكن أنكار النسخ جملة قول شاذ مخالف لما كان عليه السلف الصالح في إثبات النسخ في القرآن إجمالاً، وإن اختلفوا فيه تفصيلاً، وأن العالم المنصف ليعجب من تكلف أبي مسلم الأصبهاني ومقلديه في تأويل الآيات الناسخة، كل ذلك ليثبت دعواه بنفي النسخ، ومن شاء الوقوف على الحقيقة فليراجع تفسير المنار متجرداً منصفاً.

وأنظر «الناسخ والمنسوخ»، «قبضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن» وهما من مطبوعات المكتب الإسلامي.

(٢) فيما يبلغ عن ربه جل شأنه ـ زهير ـ.

والتي يعمل بها في جميع الأحكام، وأنه هو الهادي الوحيد الذي لم تتطرق إليه زيادة ولا نقصان وقد تكفل الله تعالى بحفظه[1].

وكان يقول: ليت الفقهاء الذين أزابوا أدمغتهم في فهم عبارات من يقلدونهم وما يستنبط منها منطوقاً ومفهوماً، وضيعوا أوقاتهم بما لا يفيد الأمة شيئاً مذكوراً. ليت هؤلاء قد صرفوا هذه الأوقات لفهم القرآن وما يستنبط منه لأتونا بالعجب العجاب. ونشلوا الأمة مما هي واقعة فيه من الجمود والتأخر!

وكان يحدث عن فقيه كان قد أوتي الذكاء الكثير ويشتغل في كتب الفقه وحل طلاسمها، وألغازها. فكانت تتوارد عليه عشرات الخواطر في فهم العبارات وحل المشكلات، فكان يشرب الخل ليقل هذا الذكاء الذي لم يسبقه إليه أحد في هذا المضمار، وكان القاسمي يقول: لو كان مثل هذا العالم الذكي الذي أوتي من النبوغ ما أوتي، قد توجه بكليته نحو فهم القرآن وأسرار القرآن وحكم القرآن مع السنة لكان أتانا بما لا يحصى من الفوائد والتطبيقات التي تحيي البشرية!

وكان رحمه الله يقول: قد أخطأ من قال إن آيات الأحكام خمسمئة فإنه يمكن أن يستنبط من الأوامر والنواهي والقصص وضرب الأمثال وغير ذلك ما لا يحصى من الأحكام.

وقد استنبط من قوله تعالى: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾. بأنه يمكن إذا تقدم العلم أن تحصل المخابرة واللقاء بين سكان الكواكب المختلفة! وهو ما يسعى العلماء إلى تحقيقه في وقتنا الحاضر.

مذكراته وآرائه:

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يضرب في الإستنباط أحياناً متأثراً في ذلك ببعض ما كان يقرؤه من كتب الطوائف الأخرى كالشيعة مثلاً، فقد ذهب في تفسير قوله تعالى: **﴿نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** إلى إباحة الإتيان الشاذ، ثم راح يضعف بجرة قلم جميع الأحاديث الواردة في تحريم إتيان المرأة في دبرها!!

وأغرب ما رأيت من تفسيره أنه زعم أن ذا القرنين الوارد ذكره في القرآن هو الإسكندر المقدوني المعروف بفسقه وتعاطيه للخمور.

(نشرت الرد على هذا القول في مجلة المعرفة الدمشقية).

---

(١) وكذلك تكفل الله تعالى بحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لأن القرآن وحده لا يفهم دون السنة، لذا قال بعض العلماء أن الذكر في الآية هو الكتاب والسنة.

٢ ـ ومن مؤلفاته: دلائل التوحيد. والسبب في تأليف هذا الكتاب أنه زاره في داره أحد الشيوخ مستنكراً ما جاء في صحيفة المؤيد وقال له: يا أستاذ اقرأ لنا هذه المقالة وقد طبع منها ألوف. وهي تتضمن إنكار وجود الله مع عدة شبه عن الإسلام، وإنني أخذت هذه الجريدة وقصدت عالماً كبيراً في الديار الشامية وقرأت له المقال وطلبت منه الرد عليه. فأجابني: سأرد عليه في درس الوعظ في جامع بني أمية، فقلت له: مقالة نشرت وقرأها القاصي والداني والخواص والعوام، والدرس لا يسمعه إلا القليل؟ فلم يرد عليّ. لذلك قصدتك يا شيخ جمال.

فأجابه الأستاذ القاسمي: إنني سأرد عليه بتأليف خاص أسميه: «دلائل التوحيد» وقد ألفه وذكر فيه عشرات من الأدلة العقلية على وجود الله، ودفع الشبهة التي ترد على الدين، أذكر منها واحدة:

قال له أحد الحاضرين:

إن لي شبهة واحدة في سيرة النبي ﷺ وهي: أن الرسول ﷺ كان يغلب عليه الحلم والصفح على الأعداء، فقد رأينا من أخلاقه سعة الصدر والعفو عن خصومه مما لا يوصف. ولكنه لم يصفح ولم يعف عن يهود بني قريظة، بل أمر بذبحهم ذبح النعاج. فما سبب ذلك؟

فأجابه القاسمي عن مبلغ خيانة اليهود له في أحرج الأوقات ولولا عناية الله به لقضي على الإسلام، فلا يسوغ العقل العفو عن مثل هؤلاء ليكونوا عبرة لكل خائن مثلهم.

قيل للقاسمي: إن هذا الجواب لا يقنع الخصم المعاند، فأجاب: لا يهمني إقناعه، وإنما يهمني رد الشبهة بالدليل المسلم به لدى أرباب العقول السليمة الراغبين في الحق!

وقد حصلت حادثة أثناء طبع هذا الكتاب توصف للقارىء قساوة ذلك العصر على المؤلفين والطابعين:

كان طبع الكتب ممنوعاً في العهد العثماني، إلا بعد الحصول على ترخيص من اللجان المختصة، وهي لا توافق على الطبع إذا كان في الكتاب ما يدعو إلى حرية البحث ومحاربة الظلم. لذا اضطر الأستاذ إلى إرسال هذا الكتاب إلى المطبعة خفية، ولكن وجد من وشى به من الخرافيين والمتعصبين، فصدف أنه بينما كان يلقي درساً في سدة جامع سنان باشا، إذ حضر رجال الأمن وفتشوا جيوبه ومكتبته وأخذوا جميع ما عثروا عليه، ثم أمروه بالذهاب إلى داره، فلبى طلبهم، وهناك فتحوا الدار وعثروا على قسم من مسودة كتاب ـ دلائل التوحيد ـ لذا توقف عن طبعه حتى أعلنت الحرية فأكمله ونوه عن هذه المحنة في أواخر الكتاب المذكور.

وكان يقول: إن من نعم الله عليَّ أن رجال الأمن لم يهتدوا إلى تصنيف لي كان يحتوي

على المخابرات والرسائل التي كنت أتبادلها مع رجال الفكر والحرية والسياسة أمثال الشيخ محمد عبده ورشيد رضا والشيخ طاهر الجزائري والأمير شكيب إرسلان ومحمود شكري الألوسي وغيرهم من رجال السياسة والدين.

وطرز وجه كتاب دلائل التوحيد ببيتين من نظمه:

أدلـة في وجـود الحق قـاهـرة ... راحت لها شبه الالحاد منكسرة
الحق يعلو ولا يعلى عليه فمن ... ناداه كانت جنود الله منتصرة

وقد طلبت بعد وفاته لجنة النشر من أخيه الشيخ قاسم إعادة طبع كتاب دلائل التوحيد فأذن لهم بعد أن ضم للكتاب خلاصة ترجمة المؤلف وما كتب عنه الكتاب المشهورون.

وقد اطلعت في محتويات هذا الكتاب، فلفت نظري هذا البحث: اتفاقهم على أنه إذا نعارض العقل والنقل أُوِّل النقل، فرجعت إليه، فإذا به يثبت حجته. يقول ابن رشد في كتابه (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الإتصال) فقال هذا الفيلسوف «ما مثاله: إن كان ظاهر النطق في الشريعة مخالفاً لما إليه البرهان طلب تأويله (قال) ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي. وإذا كان الفقيه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية فكم بالحري: أن يفعل ذلك صاحب القلم بالبرهان. فإن الفقيه إنما عنده قياس ظني والعارف عنده قياس يقيني ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي (قال) وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن... ولهذا أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل» ص ١١٠.

ليس بمستغرب أن يقول ابن رشد هذا الكلام الظاهر البطلان، وقد سبقه إليه كثير من الفلاسفة المسمين بالمسلمين أمثال ابن سينا وإخوان الصفاء الذين ابتعدوا عن الإسلام بسبب هذا التزييف والتعطيل لأحكام الشرع بل نسفها باسم التأويل!! وليس هنا مجال الرد على أقوال ابن رشد واضرابه من هؤلاء الفلاسفة، فقد ألفت رسالة أرجو من الله سبحانه أن يقيض لها الطبع جعلت عنوانها: «الفلاسفة المسمون بالمسلمين في انحرافهم وضلالهم» مع اعترافي بفضلهم من الناحية العلمية والرياضيات، وقد حاولوا بمقاييسهم العقلية القاصرة التكلم على قضايا ما وراء الطبيعة الغيبية متأثرين بنظريات اليونان فضلوا وأضلوا! وقد انبرى في الرد عليهم إمامان وهما الغزالي وابن تيمية، غير أن الأول بسبب ضعفه بعلوم الحديث قد دخل بطونهم ولم

يستطع الخروج منها على حد تعبير أحد أئمة المسلمين القدامى وأظنه أبا بكر ابن العربي[1]، وانحرف في كثير من أبحاثه.

وأما الثاني وهو الإمام الكبير ابن تيمية فقد أوضح ضلال وفساد نظرياتهم في كتب كثيرة فجزاه الله سبحانه عن المسلمين خير الجزاء.

أجل ليس بمستغرب أن يقول ابن رشد هذا الكلام الظاهر البطلان، إنما المستغرب أن ينقله عنه الشيخ جمال ويخدع بشهرته اويسكت عن الرد عليه!! بل جاراه أيضاً.

ونعود مرة أخرى إلى كلام الشيخ القاسمي أنه إذا تعارض العقل والنقل أُوِّل النقل. فهذا الكلام لا يصح على إطلاقه لأن كلًّا من النقل والعقل فيه ما هو قطعي وما هو ظني ثم أن النقل من حيث دلالته ينقسم إلى قسمين فمنه ما دلالته قطعية ومنه ما دلالته ظنية، فإذا كان الأمر كذلك فلا يصح ذلك القول على إطلاقه. بل ينبغي أن يقال يؤول النقل إذا كان ظنياً من أحد جانبيه أعني إذا كان ظني الثبوت أو ظني الدلالة فحينئذ يؤول إذا كان العقل الذي ادعى مخالفته للنقل مقطوعاً. أما إذا لم يكن كذلك كأن يكون رأي طائفة من الناس أو العلماء وهناك ناس آخرون خلافهم لا يرون رأيهم فحينئذ لا يصح تأويل النقل بوجه من الوجوه ولا يوجد نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة يخالف العقل عند جميع الناس.

٣ ـ ومن تآليفه المفيدة: إصلاح المساجد من البدع والعوائد: التزم فيه إقناع الحشويين من المقلدين ببطلان هذه البدع من نصوص فقهائهم الذين لا يقتنعون إلا بها، ثم أوضح أن أصل إنكار البدعة: الكتاب والسنة، ولكن اضطر لإقناعهم من نصوص فقهائهم الذين لا يقبلون مرجعاً سواها!!

وقد سأله تلميذه حين إتمامه لكتاب إصلاح المساجد الذي نحن بصدده:
لماذا آثرت بدع المساجد على غيرها من البدع وقد ملأت الآفاق؟

فأجاب: إنه من المؤسف والمحزن والمؤلم أن المساجد فيها من البدع ما لا يحصى، وأن المسجد الأموي بدمشق يعد شيخ المساجد في البدع، فأحببت المسارعة إلى تنقية هذه المعابد التي وجدت لنشر العلم الصحيح وتعلم كتاب الله وسنة رسوله وتنبيه المسلمين إلى ما دخل في الإسلام مما هو منه بريء، لا أن يكون مقراً لها!!

ومن الغريب أن تحرص مديريات الأوقاف الإسلامية في مختلف البلاد على حماية هذه البدع والإنفاق على القائمين بها بدلاً من محاربتها بالأساليب العلمية.

---

(١) هو محمد بن عبد الله، العالم الكبير المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، وكان من أهل الإجتهاد مع انتسابه للمذهب المالكي من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وكان تلميذاً للغزالي، وكانت وفاة الإمام الغزالي سنة ٥٠٥ هـ رحمهما الله.

وقد ألقم هذا الكتاب الخصم حجراً لأنه لا يستطيع أحد أن يطعن بقول المؤلف ما دام قد اعتمد على أقوال الفقهاء الذين يقلدهم المقلدون.

وقد تم طبعه على نفقة المرحوم الشيخ فوزان السابق[1].

ولما كان هذا الكتاب من أعظم الأسلحة التي تحارب البدع والضلالات فكم أتمنى لو يسارع أهل الغيرة على الإسلام إلى إعادة طبعه ونشره بين الناس.

وهذه بعض مقتطفات من هذا الكتاب القيم:

«الترهيب من الإبتداع»

لا يخفى أن النبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم حذروا قومهم من البدع ومحدثات الأمور، وأمروهم بالإتباع الذي فيه النجاة من كل محذور. وجاء في كتاب الله تعالى من الأمر بالإتباع بما لا يرتفع معه الترك، قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ الآية، وهذا نص فيما نحن فيه.

وقد روينا عن أبي الحجاج ابن جبير المكي - وهو من كبار التابعين وإمام المفسرين - في قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ قال: البدع والشبهات.

وقال عز وجل: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾. قال ميمون بن مهران - وهو من فقهاء التابعين - الردّ إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله إذا قبض إلى سنته.

وفي (صحيح مسلم) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله عز وجل في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون أصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره - وفي رواية يهتدون بهديه، ويستنون بسنته - ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

---

(١) إن كتاب «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» طبعه المكتب الإسلامي طبعة محققة، ومعلقاً عليه من العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مع تخريج أحاديثه مع زيادات وتنقيحات من المؤلف رحمه الله.

وأما ما ذكره الأستاذ الإستانبولي فإنه قديم العهد جداً.

وفيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» زاد البيهقي «وكل ضلالة في النار»[1].

وفي (الصحيحين) و(سنن أبي داود) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد». وفي رواية «من صنع أمراً على غير أمرنا فهو رد»[2] أي مردود على فاعله.

وأخرج (الدارمي) أن أبا موسى الأشعري قال لابن مسعود:

«إني رأيت في المسجد قوماً حُلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول: كبروا مائة فيكبرون مائة فيقول: هللوا مائة فيهللون مائة فيقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة» قال: «أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء».

ثم أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون».

قالوا: يا أبا عبد الرحمن «حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد» قال: «فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء أصحابه متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ. وآنيته لم تكسر. والذي نفسي بيده أنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد. أو مفتتحو باب ضلالة».

قالوا: «والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير» قال: «وكم من مريد للخير لن يصيبه»[3] الحديث.

وروى (الدارمي) أيضاً عن عبد الله (ابن مسعود) قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[4].

وعنه قال: «القصد في السنة خير من الإجتهاد في البدعة».

وعنه قال: «تعلموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله. ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق».

---

(١) وأخرجه النسائي أيضاً، وإسناده صحيح. أنظر رسالتي «الأجوبة النافعة» (ص ٤٧)، و«الأرواء» (٦٠٨) طبع المكتب الإسلامي.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة باللفظ الأول، وهو مخرج في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» رقم ٥.

(٣) قال المحدث الألباني في «إصلاح المساجد»: وإسناده صحيح، كما حققته في «الرد على الشيخ الحبشي» (ص ٤٥ - ٤٧).

(٤) قال المحدث الألباني في «إصلاح المساجد» إسناده صحيح.

وعنه قال: «أيها الناس، إنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالأمر الأول».

وعن عمر رضي الله عنه قال: «يهدم الإسلام زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين».

وعنه قال: «سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عليك بتقوى الله تعالى والإستقامة. اتبع ولا تبتدع».

وعنه: «أن أبغض الأمور إلى الله البدع، وإن من البدع الإعتكاف في المساجد التي في الدور» (١).

وفي سنن أبي داود عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً. فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» (٢).

وفي كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «أوصيكم بتقوى الله تعالى والإقتصاد في أمره واتباع سنة رسول الله ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد».

وعن محمد بن مسلم: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

قال أبو معشر: سألت إبراهيم بن موسى عن هذه الأهواء فقال: «ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير، ما هي إلا نزعة من الشيطان، عليك بالأمر الأول».

وسأل عبد الملك بن مروان (غضيف بن الحارث) عن القصص ورفع الأيدي على المنابر فقال غضيف: إنهما لمن أمثل ما أحدثتم، وإني لا أجيبك إليهما لأني حدثت أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أمة تحدث في دينها بدعة إلا أضاعت مثلها من السنة والتمسك بالسنة أحبُّ إليّ من أن أُحدث بدعة» (٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة».

---

(١) قال المحدث الألباني: أغلب هذه الآثار، ضعيفة الأسانيد، والمؤلف رحمه الله نقلها عن أبي شامة عن «الدارمي» كما يأتي.

(٢) قال المحدث الألباني: لم أره في «السنن»، وقد عزاه إليه غير المصنف أيضاً، وأظنه تابعاً لهم فيه، والله أعلم.

(٣) قال المحدث الألباني: في «إصلاح المساجد» ضعيف الإسناد.

أخرج هذه الآثار (الدارمي) في مسنده ونقلها عنه الإمام (أبو شامة) الدمشقي في كتاب «الباعث عن إنكار البدع والحوادث».

«معنى البدعة»

أصل هذه الكلمة من الإختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق، ولا مثال أحتذي ولا ألف مثله. ومنه قولهم أبدع الله الخلق أي خلقهم ابتداءً ومنه قوله تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض﴾ وقوله: ﴿قل ما كنتُ بدعاً من الرسل﴾ أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض. وهذا الإسم يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة، وفيما تفعله الجوارح. ثم غلب لفظ «البدعة» على الحدث المكروه في الدين، ومثله لفظ المبتدع لا يكاد يستعمل إلا في الذم. وأما من حيث أصل الإشتقاق فإنه يقال ذلك في المدح والذم لأن المراد أنه شيء مخترع على غير مثال سبق. وقال الجوهري «البديع المبتدع، والبدعة الحدث في الدين بعد الإكمال» انتهى.

وهو كل ما لم يكن في عصر النبي ﷺ مما فعله أو أقر عليه أو عُلم من قواعد شريعته الأذنُ فيه وعدم النكير عليه. وفي معنى ذلك ما كان في عصر الصحابة رضي الله عنهم، مما أجمعوا عليه قولاً أو فعلاً أو تقريراً. وكذلك ما اختلفوا فيه فإن اختلافهم رحمة[1] مهما كان للإجتهاد والتردد مساغ وليس لغيرهم إلا الإتباع دون الإبتداع.

وما أحسن ما قاله إبراهيم النخعي رحمة الله عليه: «ما أعطاكم الله خيراً أخبيء عنهم، وهم أصحاب رسوله وخيرته من خلقه» فأشار بذلك إلى ترك الغلو في الدين وإلى الإقتداء بالسلف الصالح.

وقد قال الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ فكل من فعل أمراً موهماً أنه مشروع وليس كذلك فهو غالٍ في دينه، مبتدع فيه، قائل على الله غير الحق بلسان مقاله أو لسان حاله. وروي أن رجلاً قال لمالك بن أنس: من أين أحرم؟ قال: من حيث أحرم رسول الله ﷺ. قال الرجل: فإن أحرمت من أبعد منه؟ قال: فلا تفعل، فإني أخاف عليك الفتنة. قال: وأي فتنةٍ في ازدياد الخير؟ فقال مالك: فإن الله

---

(١) قال المحدث الألباني: ماكان الإختلاف برحمة يوماً ما ولن يكون، وحسبه أن يكون مغفوراً إذا كان عن اجتهاد وإخلاص وحديث «اختلاف أمتي رحمة» وما في معناه، لا يصح رواية ولا دراية، كما حققته في «الأحاديث الضعيفة» (رقم ٥٧ ـ ٦٢).

تعالى يقول: ﴿فليحذَرِ الذين يخالفون عن أمره﴾ الآية، وأي فتنة، أعظم من أن ترى أنك خصصت بفضل لم يخص به رسول الله ﷺ. انتهى من «إصلاح المساجد» ص ١٦.

«بغض المبتدع»

اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بدَّ أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وهو مطّرد في الحب والبغض في العادات. ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب، وإنما يترشح عند الغلبة، ويترشح بظهور انفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة، وفي المخالفة والموافقة. فإذا ظهر في الفعل شيء سمي موالاة ومعاداة، ولذلك قال الله تعالى: «هل واليت فيّ ولياً وهل عاديت فيّ عدواً»[1] وأثر البغض إما في الإعراض والتباعد وقلة الإلتفات. أو في الإستخفاف وتغليظ القول. أو في قطع المعونة والرفق والنصرة.

ومن الذين يبغضون في الله المبتدِع، فإن كان يدعو إلى بدعته وهي ضلالة سبب لغواية الخلق فالإستحباب إظهار بغضه ومعاداته والإنقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه. وإن كان عامياً لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الإقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن لا يفاتح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به بالنصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الإستحباب في الإعراض، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجمود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى، لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها. انتهى من «إصلاح المساجد» ص ١٨.

«مفاسد الإقرار على البدع»

من الغيرة لله ولرسوله ولدينه تعطيل ما ألصق بالدين وليس منه وهجره وإطراحه واستقباحه وتنفير الناس عنه، إذ يلزم من الموافقة عليه مفاسد:

الأولى: اعتماد العوام على صحته أو حسنه.

الثانية: إضلال الناس به وإعانة لهم على الباطل وإغراء به.

---

(١) حديث قدسي. قال المحدث الألباني: لا أعرفه في شيء من كتب السنة المعتمدة.

الثالثة: في فعل العالم ذلك تسبب إلى أن تكذب العامة على رسول الله ﷺ فتقول هذه سنة من السنن. والتسبب إلى الكذب على رسول الله ﷺ لا يجوز لأنه يورط العامة في عهدة قوله ﷺ «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

الرابعة: إن الرجل العالم المقتدىٰ به والمرموق بعين الصلاح إذا فعلها كان موهماً للعامة أنها من السنن فيكون كاذباً على رسول الله ﷺ بلسان الحال، ولسانُ الحال قد يقوم مقام لسان المقال، وأكثر ما أُتي الناس في البدع بهذا السبب يظن في شخص أنه من أهل العلم والتقوى وليس هو في نفس الأمر كذلك فيرمقون أقواله وأفعاله فيتبعونه في ذلك فتفسد أمورهم.

وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن مما اتخوّف على أمتي أئمة مضلين» أخرجه ابن ماجه والترمذي وصححه. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[2] قال الإمام الطرطوشي فتدبروا هذا الحديث فإنه يدل على أنه لا يؤتى الناس قط من قبل علمائهم وإنما يؤتون من قبل إذا مات علماؤهم أفتى من ليس بعالم فيؤتى الناس من قبلهم. قال: وقد صرّف عمر رضي الله عنه هذا المعنى تصريفاً فقال: «ما خان أمين قط، ولكنه ائتمن غير أمين فخان» قال ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتي من ليس بعالم فضل وأضل وكذلك فعل ربيعة قال مالك رحمه الله: بكى ربيعة يوماً بكاءً شديداً فقيل له: أمصيبة نزلت بك. قال لا ولكن استُفْتِيَ من لا علم عنده، وظهر في الإسلام أمر عظيم[3].

٤ ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث: قال الإمام محمد رشيد رضا في تقريظه لهذا الكتاب:

ليتني كنت أملك من وقتي الحاشك بالضروريات، الحاشد بالواجبات، فرصة واسعة أو نُهَزاً متفرقة في شهر أو شهرين أقرأ فيه هذا السفر النفيس كله، فأتذكر به من هذا العلم ما لعلي نسيت، وأتعلم مما جمعه المؤلف فيه ما جهلت، فهو الحقيق بأن يُقرأ ما كتب، ويحصى ما

---

(١) قال المحدث الألباني: حديث صحيح متواتر. وللطبراني فيه جزء لطيف، جمع فيه طرقه، وهو محفوظ في مخطوطات ظاهرية دمشق.

(٢) قال المحدث الألباني في «إصلاح المساجد» أخرجه الشيخان، والمصنف ساقه بالمعنى، فإنه مغاير لسياقهما في بعض الألفاظ.

(٣) انتهى من «إصلاح المساجد» (ص ١٠ ـ ٢٠).

جمع، لتحرية النفع، وحسن اختياره في الجمع، وسلامة ذوقه في التعبير والتقسيم والترتيب والوضع، وقد بلغ في مصنفه هذا سدرة المنتهى من هذا العلم الإصلاحي المحض، الذي يدعى بكد الحافظة، ويستنبط بقوة الذاكـرة، فلا يستلذه الفكـر الغواص عـلى حقائق المعقولات، ولا الخيال الجوال في جواء الشعريات، ولا الروح المرفرف في رياض الأدب أو المحلق في سماء الإلهيات - إذ جعله كأنه مجموعة علوم وفنون وأدب وتاريخ وتهذيب، مصطفاة كلها من علم حديث المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله، ومن كتب طبقات العلماء المهتدين به، كأنه قرص من أقراص أبكار النحل جنته من طرائف الأزهار العطرية، ومجت فيه عسلها المشتار من طرائف الثمار الشهية، فلعل الظمآن لهذا العلم لا يجد فيه كتاباً تطيب له مطالعته كله، فينهله ويعله ولا يمله، كأنه أقصوصة حب، أو ديوان شعر، اللهم إلا هذا الكتاب.

وأما طريقة المؤلف في تدوينه فهو أنه طالع كثيراً من مصنفات المحدثين والأصوليين والفقهاء والصوفية والمتكلمين والأدباء من المتقدمين والمتأخرين، وكتب مذكرات فيما اختاره منها في هذا الفن وما يتصل به من العلم، ثم جمعها ورتبها كما وصفناها؛ وقد وفى بعض المسائل حقها، ببيان كل ما تحس إليه حاجة طلابها، وأوجز في بعضها واختصر، إما ليمحصه في فرصة أخرى وإما ليفوض أمره إلى أهل البحث والنظر، ولا غضاضة عليه في هذا، فإمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري قد سبقه في بعض أبواب جامعه الصحيح إلى مثله.

وقد فتح فيه بعد الخطبة والمقدمة تسعة أبواب لمباحث الحديث من: فضله وعلومه ومصطلحاته ورواته وكتبه ومصنفيها ودرجاته وما يُحتج به وما لا يحتج به وحكم العمل به، وغير ذلك من المسائل في نوعي الرواية والدراية، فاستغرق ذلك ٢٥٤ صفحة، وفتح الباب العاشر لفقه الحديث ومكانه من أصول الدين والمذاهب فيه، وما روي وألف في الإهتداء والعمل به، فبلغت صفحاته بهذه المباحث ٣٨٣، يليها الخاتمة وهي في فوائد متفرقة يضطر إليها الأثري.

أهم فوائد الكتاب المقصودة منه بالذات

الجمال القاسمي رحمه الله تعالى من المصلحين المجددين في هذا القرن (الرابع عشر للهجرة) وغرضه الأول من هذا الكتاب بث هداية الكتاب والسنة في الأمة على منهاج السلف الصالح وتسهيل سبيلها، وما أهلك المسلمين في دينهم ودنياهم إلا الأعراض عن هذه الهداية التي شرع الله الدين لأجلها.

ولهذا الإعراض سببان: أهونها الجهل البسيط، وهو عدم العلم بما خاطب الله الناس في كتابه، وبما بينه لهم رسوله ﷺ منه بسنته وهديه، وبما كان عليه أهل العصر الأول عصر

النور من الإهتداء بالكتاب والسنة علماً وعملاً وخلقاً وجهاداً وفتحاً وحكماً بين الناس؛ وأعسرهما وأضرهما: الجهل المركب ووهم التعليم التقليدي لكتب المتأخرين من المتكلمين والفقهاء والصوفية، والإستغناء بها عما كان عليه السلف ومنهم أئمة الأمصار من المحدثين والفقهاء بشبهة شيطانية، هي أن فهم الكتاب والسنة خاص بالمجتهدين وأن المتأخرين من العلماء أعلم بما فهمه المصنفون المقلدون للأئمة في القرون الوسطى، وأولئك أعلم بما فهمه الأئمة المجتهدون منهما مباشرة، وأن العلماء على طبقات في تقليد بعضهم لبعض عدها بعض متأخري الفقهاء خمساً، وعدها الشعرانيّ من متأخري الصوفية ستاً، كل طبقة تحجب أهل عصرها عما قبله، حتى تجرأ بعض من يؤلفون ويكتبون في المجلات ممن أعطوا لقب «كبار علماء الأزهر» ـ وهم الطبقة العاشرة على حساب الشعراني ـ على التصريح في عصرنا هذا بأن من يؤمن بآيات القرآن في بعض صفات الله تعالى على ظاهرها يكون كافراً (!!!) وتجرأ بعض مَنْ قبله منهم على التصريح في مجلس إدارة الأزهر بأن من يقول إنه يعمل بما صح من الأحاديث على خلاف فقهاء المذاهب فهو زنديق (كما بيناه في المنار وفي تاريخ الأستاذ الإمام) وهؤلاء يكرهون علم الحديث وأهله. وقد صرح الحفاظ الأولون بأن الوقيعة في أهل الأثر من دأب أهل البدع كما نقله المؤلف[1].

وقد دار حول كتاب قواعد التحديث نقاش طويل بين الكاتبين الكبيرين محمد كرد علي وشكيب إرسلان رحمهما الله في مجلة الرسالة، وقد رأيت من المفيد الإتيان على ذكر موجز هذا النقاش.

قال محمد كرد علي:

«...وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطق عن شرط الجمع فقط، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجود النقل، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً، فقد نقل في أول كتابه نحو مائة صفحة (والكتاب في أربعمئة صفحة) من أقوال القدماء. ثم أثبت له رأياً واحداً سبق إليه (ص ١٠١) رجح فيه رأي الجلال الدوّاني على رأي الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة، ولو كانت في شيء من الترغيب والفضائل.

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد.

---

(١) الإمام محمد رشيد رضا: قواعد التحديث.

قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب إلى آخره، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم، كما أخذ عن بعض المتصوفة ومجدهم... وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في أكثر تآليفه ببسط آراء غيره[1].

وقد رد عليه الأمير شكيب إرسلان بما يلي:

«... كان الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله، وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب «قواعد التحديث» من مناقب مؤلفه، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد علي جعل من هذا موضعاً لنقده، وأنا أتمنى الآن أن أكون أسأت فهم كلامه. فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فإنه من مفاخر الشام بالإتفاق، وممن سأذكر فضائلهم في الآفاق، وليس محمد كرد علي بالذي يجهل ذلك أو يقدر أن يماري فيه، وإني لجدُّ مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتمارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر، ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق في كل مقام مباهاة.

وأما من جهة التأليف نفسه فإن الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار إليها الأخ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال: إنه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأً وغاية.

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمعه جمعاً.

وقد يوجد الإنسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه، ومن الترجيح والتجريح لاختلاف أذواق من يخاطبهم، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق.

فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ويجد الإكتفاء بعرض الآراء أسلم[2] (بعد المحنة التي أصابته لما اتهم بمذهب خامس كذباً وزوراً).

وقد طلبنا إلى أستاذنا محدث الشام محمد ناصر الدين الألباني الحكم على الكرد علي وإرسلان فهو خير من يشفي الغلة في هذا الموضوع.

---

(١) الرسالة. السنة الثالثة، ١٩٣٥ ص ١٠٨٠ ـ ١٠٨١.

(٢) الرسالة ص ١٢٨٠ السنة الثالثة عام ١٩٣٥.

٥ ـ شذرة من السيرة النبوية: ألّف الشيخ القاسمي هذه الرسالة لإنقاذ المسلمين من قصص المولد المتداولة بين الأيدي، والحاوية لكثير من الأساطير والخرافات والأكاذيب. فجمع شذرة من سيرة الرسول ﷺ وأعماله الباهرة.

جمع لهذه الغاية الأحاديث التي تتكلم على الإرهاصات التي اقترنت في مولده عليه السلام ثم بحث عن سندها فوجدها كلها ضعيفة أو موضوعة فتخلى عنها جميعاً واقتصر على التحدث عن أعماله ﷺ وبطولاته وتشريعاته السامية.

وقد أحب أن يختم تلك الشذرة بما قاله المؤرخون عن قصة القيام عند الولادة وذكر رأي ابن حجر الهيثمي الفقيه الشافعي في حكمه فقد قال: «أما القيام عند الولادة فهو بدعة، أما العوام فمعذورون وأما الخواص فلا ينبغي لهم فعله».

ذكر القاسمي هذا القول بنصه فثار عليه أضداده واتخذوه وسيلة لإثارة العامة، وقد ندم القاسمي على ذكرها وقال: ليتني لم أكتبها لأنها صدت العوام عن قراءة هذه الشذرة المفيدة.

٦ ـ رسالة الإستئناس لتصحيح أنكحة الناس: وهي آخر مؤلفاته، كتبها في رحلته إلى فلسطين، فأوضح فيها أن أكثر طلاق الناس غير واقع لأنه غير مستوف للشروط التي توجب وقوعها.

وقد قال ـ رحمه الله ـ لتلميذه هل تدري لماذا سميتها بهذا الإسم؟ قال: لا أدري.

قال: إنني بينت في هذه الرسالة بالأدلة القطعية أن أكثر طلقات الناس غير واقعة، وصدرتها بكلمة استئناس ليقبل الحشوي الجامد على قراءتها ولا ينفر منها. وفي الحقيقة ينبغي أن تسمى: «الأدلة القاطعة على تصحيح أنكحة الناس».

وقد استهل رسالته بجملة لا تنفر الجامد المقلد فقال: «مررت مع شخص من الفقهاء الجامدين في شوارع دمشق فقال لي الفقيه: انظر هؤلاء الأولاد الذين يلعبون فإن جلهم أولاد زنا وأبناء خنا لأنه قل من لا يحلف بالطلاق من آبائهم، فيأتي هذا النسل منهم وقد وقع الطلاق على أمهاتهم، فأجبته قائلاً: «هون عليك الأمر أيها الأستاذ، فليس الحال كما ذكرت وليس مطلق الطلاق يقع، والواقع هو ما استوفى الشروط المجمع عليها لأنه يجب العمل بالأحوط وخاصة في الفروج».

ثم سارع إلى تأليف هذه الرسالة لإيضاح الطلاق الواقع.

وقد جعلته الحكومة السورية أحد الأركان الثلاثة التي استنبطت منه قانون الأحوال الشخصية مع ابن تيمية صاحب الفضل العظيم فهو أول من أثار هذا البحث بعدما رفضته

المذهبية بركام من الإهمال! مما سبب تشرد الأسرة الإسلامية ووقوع الحادثة المشؤومة في حق ملك العجم وشعبه في مذهب الإمامية الإثني عشرية. راجع في وصف وتفصيل هذه الحادثة الرهيبة رد الأستاذ البيطار على الكوثري وتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على مختصر ميزان السنة للذهبي والقانون المصري وهذا ملخصه:

١ ـ طلاق الثلاثة بلفظ واحد يقع طلقة واحدة.

٢ ـ الطلاق المعلق لا يقع.

وقد زاد جمال الدين القاسمي في بيان رحمة الله تعالى فطبع كتاب: «إغاثة اللهفان في طلاقه الغضبان لابن القيم» وأوضح فيه أن طلاق الغضبان النادم لا يقع.

٧ ـ كتاب المسح على الجوربين: ساق الجمال القاسمي في هذا الكتاب أدلة المسح على الجوربين من الكتاب الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة الكرام ومذاهب الأئمة وقول شيخ الإسلام المصلح الكبير ابن تيمية وغيره.

وهذا الكتاب جليل الفائدة، كثير النفع، طبع قديماً ونفدت طبعته، فأعاد طبعه الشيخ الجليل محمد نصيف[1] نصير السنة والعامل على نشر علم السلف في كتاب ضم إليه كتاب الإستئناس لتصحيح أنكحة الناس الذي تقدم ذكره ورسالة (المسح على الخفين لشيخ الإسلام ابن تيمية).

هذا ـ وكم يجدر بشبابنا المسلم الإطلاع على هذا الكتاب ليجد فيه مبتغاه من رخصة المسح على الجوربين خلافاً للشيعة الذين شاركهم بعض الجامدين اليوم في المنع من المسح على الجوربين، وقد سبق لي أن نشرت في كثير من الصحف الدمشقية منذ أعوام فتوى مفتي الحنابلة الشيخ جميل الشطي في جواز المسح على الجوربين، وإن كانا رقيقين وشفافين ويصل الماء منهما إلى القدم.

٨ ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب: كتاب أخلاقي قيم، صغير الحجم، كبير النفع، سهل الأسلوب، ذكر مؤلفه أنه تقرر تدريسه في مدارس الإناث بدمشق، وقد ختمه بمختارات رقيقة من الأبيات مرتبة حسب حروف الهجاء، حث الطلبة على استظهارها والإستشهاد فيها تمهيداً وتشويقاً لمراجعة دواوين الشعر واستظهار ما فيها.

وهذا الكتاب على الرغم من صغر حجمه بحث في ما يزيد على ثمانين موضوعاً في الأخلاق!

---

(١) هو العالم المفضال محمد بن حسين نصيف، وقد كان من أكرم ما عرف الناس، ومن أحسنهم اهتماماً بنشر عقيدة السلف كانت وفاته ـ رحمه الله ـ في الطائف سنة ١٣٩١ هـ.

والكتاب طبعناه مع «إتمام النصح في أحكام المسح» لأستاذنا الألباني ـ زهير ـ.

ونأخذ على الشيخ جمال كثرة روايته من النوادر عن الصوفية، وهي لم تثبت، كما ذكر قصة الصحابي حذيفة بن اليمان وهي على الرغم من شهرتها مما لم يصح سنده. وأهم ما نأخذه على أستاذنا في هذا الكتاب ذكره حكايات طويلة في الحب الصادق في بيان مروءة الغربيين من الأجانب، مع أن في تاريخنا الإسلامي كثيراً منها ومن الضروري تحبيب النشء بماضيه العظيم وأمته الإسلامية قبل غيرها من الأمم، وخاصة الغربية التي هي في الحقيقة مصدر الهمجية في معاملتها للأمم الضعيفة.

هذه بعض آثار القاسمي تناولناها بشيء من الشرح وفيما يلي نأتي على ذكر باقيها مكتفين بأسمائها:

(٩) الأنوار القدسية، على متن الشمسية في المنطق، كتب عليها إلى آخر قسم التصورات.
(١٠) إيضاح الفطرة، في أهل الفترة.
(١١) الإرتفاق، بمسائل الطلاق.
(١٢) إزالة الأوهام، بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام.
(١٣) إفادة من صحا، في تفسير سورة والضحى.
(١٤) إعلام الجاحد، عن قتل الجماعة المتمالئة بالواحد.
(١٥) الأقوال المروية، في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية.
(١٦) الأوراد المأثورة ـ مطبوع في دمشق.
(١٧) الأجوبة المرضية ـ مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦.
(١٨) بذل الهمم، لموعظة أهل وادي العجم.
(١٩) بديع المكنون، في أهم مسائل الفنون.
(٢٠) بيت القصيد، في ديوان الإمام الوالد السعيد.
(٢١) بحث في جمع القراءات المتعارف.
(٢٢) تعطير المشام، في مآثر دمشق الشام.
(٢٣) تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان.
(٢٤) تنوير اللب في معرفة القلب.
(٢٥) تاريخ الجهمية والمعتزلة، نشر في مجلة المنار وطبع في مطبعتها سنة ١٣٣١.
(٢٦) تنبيه الطالب، إلى معرفة الفرض والواجب ـ طبع في مصر ١٣٢٦.
(٢٧) ثمرة التسارع إلى الحب في الله وعدم التقاطع.
(٢٨) الجواب السني عن سؤال السيد أحمد الحسني.

(٢٩) الجوهر الصاف، في نقابة الأشراف.
(٣٠) جواب المسألة الحورانية.
(٣١) جدول في مخارج الحروف وصفاتها.
(٣٢) جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل - نشر في مجلة المنار.
(٣٣) حسن السبك، في الرحلة لوعظ قضاء النبك.
(٣٤) حياة البخاري، طبع في صيدا سنة ١٣٣٠.
(٣٥) حاشية على الروضة الندية[١].
(٣٦) درء الموهوم، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم.
(٣٧) ديوان خطب، مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٥.
(٣٨) رفع المناقضات بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات.
(٣٩) رسالة في الشاي والقهوة والدخان، مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٣.
(٤٠) رسالة في أوامر من مشايخ الإسلام بالحكم بغير المذهب الحنفي. مطبوعة بعد نشرها في مجلة المنار سنة ١٣٣١.
(٤١) رسالة في المسح على الرجلين.
(٤٢) زوال الغشاء، عن وقت العشاء.
(٤٣) زبدة الأخبار، عن أولاد الكفار.
(٤٤) السطوات، في الرد على منع العشاء قبل الصلوات.
(٤٥) شمس الجمال، على منتخب كنز العمال.
(٤٦) الشذرة البهية في حل ألفاظ نحوية، مطبوعة في دمشق سنة ١٣٣٢.
(٤٧) شرح لقطة العجلان، مطبوعة في مصر سنة ١٣٢٦.
(٤٨) شرح مجموعة أربع رسائل في الأصول مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٤.
(٤٩) شرح مجموعة أربع رسائل في الأصول أيضاً، مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٣.
(٥٠) شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه. مطبوعة في دمشق ١٣٣١. وقد أتيت على ذكر بعضها مفصلاً حين الكلام على آثار القاسمي.
(٥١) شرح مختصر المستصفى لابن رشيق.
(٥٢) الطائر الميمون، في حل لغز الكنز المدفون. مطبوع مرتين سنة ١٣١٦ وسنة ١٣٢٢.
(٥٣) طراز الخلعة، فيما نقل من قول الرملي: وأقسام الاسم تسعة.

(١) كان أستاذنا المحدث محمد ناصر الدين الألباني قد درسنا كتاب الروضة الندية وعلق عليه كثيراً من التعليقات النافعة، فحبذا لو طبعت على هذا الكتاب أو منفردة مع تعليقات الشيخ القاسمي رحمه الله.

(٥٤) الطالع المسعود، على تفسير أبي السعود (لم يتم).
(٥٥) الطالع السعيد، في مهمات الأسانيد.
(٥٦) العقود النظيمة في ذكرى مولد النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة، ومحاسن شريعته القويمة.
(٥٧) غنيمة الهمة، على كشف الغمة.
(٥٨) فصل الكلام، في حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام.
(٥٩) الفضل المبين، على عقد الجوهر الثمين، ويعرف بشرح الأربعين العجلونية.
(٦٠) فتاوى الأشراف في العمل بالتلغراف مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩.
(٦١) الكواكب السيارة، في مدح الفوارة.
(٦٢) كتاب الفتوى في الإسلام. مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩.
(٦٣) كتاب إرشاد الخلق، إلى العمل بخبر البرق. طبع بدمشق سنة ١٣٢٩.
(٦٤) كتاب الإسراء والمعراج. طبع بدمشق سنة ١٣٣١.
(٦٥) كتاب شرف الأسباط. طبع بدمشق.
(٦٦) كتاب (شرح العقائد) وهو كتاب كبير كتب الفقيد منه نحواً ما مائتي صفحة ولم يتم.
(٦٧) اللف والنشر، في طبقات المدرسين تحت قبة النسر.
(٦٨) لزوم المراتب، في الأدب مع الإمام الراتب.
(٦٩) المسند الأحمد، على مسند الإمام أحمد.
(٧٠) منتخب التوسلات. مطبوع في دمشق سنة ١٣١٣.
(٧١) مذاهب الإعراب وفلاسفة الإسلام في الجن. طبع بدمشق سنة ١٣٢٨.
(٧٢) ميزان الجرح والتعديل. طبع في مصر سنة ١٣٣٠.
(٧٣) موعظة المؤمنين، من إحياء علوم الدين. طبع بمصر سنة ١٣٣١.
(٧٤) النفحة الرحمانية، على متن الميدانية. مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢.
(٧٥) نقد النصائح الكافية. طبع بدمشق سنة ١٣٢٨.
(٧٦) هداية الألباب، لتفسير آية: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾.
(٧٧) الوعظ المطلوب من «قوت القلوب».
(٧٨) وفاء الحبيب وحده، في إيضاح جهة الوحدة (المسوقة في الفناري).
(٧٩) ينابيع العرفان، في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان.

أقول: إن بعض ما ذكرنا رسائل صغيرة مؤلفة من كراسة أو كراستين أو كراسات قليلة، له أو لغيره، وبعض ما ذكرنا من الشروح عبارة عن تعليقات لا يصح أن تسمى شرحاً، وقد كتب إليّ في العام الماضي أن له كتاباً في العبادات مقتبساً من كتب المذاهب مع بيان حكمة التشريع، كان أخذه منه الشيخ أحمد طبارة ليطبعه في مطبعته ببيروت ولم يعده

إليه، وعلمت مما كتب إليّ أنه من أهم كتبه، وكنت وعدت بتأليف كتاب في ذلك فسبقني رحمه الله إليه، فتمنيت لو يطبع لأستغني به، ولعل هذا الكتاب وتفسيره الحافل هما أكبر مظاهر علمه وإصلاحه، على أن له رسائل مختصرات لا تغني عنها المطولات.

سيقول كثير من الناس: إنك عددت القاسمي من رجال الإصلاح، وإن أسماء كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على أنها ليست من الإصلاح في ورد ولا صدر، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر؛ فكيف يضيع العالم المصلح وقته في شرح لغز، أو ما يعد أبعد عن الإصلاح من اللغز؟

ويمكنني أن أقول: إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وإن لم يدخل كل ما كتبه في باب الإصلاح الذي يفهمه قراء المنار، فمسمى الإصلاح ومفهومه واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان، والسن والعشراء والأقران، والتلاميذ والمريدين، وغيرهم من المخاطبين؛ والمصلح لا يخلق مصلحاً بالفعل، بل يخلق كغيره لا يعلم شيئاً، ويكون الإستعداد للإصلاح فيه كامناً، ثم تظهره التربية والتعليم، وما يتجدد المرة بعد المرة من العبرة والتأثير، فهل يطلب ممن عاش خمسين، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحواً من سبعين، أن يكون جميع ما كتبه أو شرحه إصلاحاً في الدنيا والدين، مرضياً عند الكهول المجربين، والشيوخ المحنكين[1]؟

وختاماً لآثار القاسمي رحمه الله، يحسن بنا أن نذكر وصية أمير البيان شكيب إرسلان:

«وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الذي قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع، ما لم يقسم إلا لكبار الأئمة، وأحبار الأمة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاهر أنواره آمين»[2].

---

(١) الإمام رشيد رضا: المنار ج ٨ م ١٧ ص ٦٢٨ - ٦٣١.

(٢) الأمير شكيب إرسلان: قواعد التحديث ص ٨.

مثال من بيانه وأسلوبه

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ورقاه في مراتب البلاغة إلى مقام لو اجتمعت الجن والإنس على معارضته لم يقدروا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فسبحان من أوضح لنا به معالم الدين، وأبان بمشارق أنواره مناهج الأدلة للمجتهدين. أحمده سبحانه وتعالى وأشكره، وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، بملة حنيفية، وشرعة قويمة علية، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا مقاصد التنزيل فحصّلوه، وأسسوا قواعده وفصّلوه، وجالت أفكارهم في آياته، وأعملوا الجد في تحقيق مبادئه وغاياته، وعلى من اقتفى أثرهم، ممن لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

أما بعد: فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم، العلم الذي هو حياة القلب، وصحة اللب؛ وأجل أصنافه وأرفعها، وأكمل معالمه وأنفعها، هي العلوم الشرعية، والمعارف الدينية. إذ بها انتظام صلاح العباد، واغتنام الفلاح في المعاد. وعلمُ التفسير، من بينها، أعلاها شأناً، وأقواها برهاناً، وأوثقها بنياناً، وأوضحها تبياناً. فإنه مأخذها وأساسها، وإليه يستند اقتناصها واقتباسها، بل هو، كما وصف به، رئيسها ورأسها. كيف لا وموضوعه، وهو الكتاب المجيد، كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وإنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه. فلا جرم، لزم من رام الإطلاع على كليات الشريعة الغراء، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها النجباء، أن يتخذه سميره وأنيسه، ويجعله على المدى، نظراً وعملاً جليسه، فيوشك أن يفوز بالبغية، ويظفر بالكلية، ويجد نفسه من السابقين، وفي الرعيل الأول المهتدين، ويشرق في قلبه نور الإيقان، وتطلع في بصيرته شمس العرفان، ويتبوأ في الدنيا والآخرة مكاناً علياً، وتدرج النبوة بين جنبيه وإن لم يكن نبياً.

وإن كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون، والإكتحال بإثمد مطالبه لتنوير العيون، فأكبت على النظر فيه، وشغفت بتدبر لآلىء عقوده ودراريه. وتصفحت ما قدر لي من تفاسير السابقين، وتفرقت، حين درست، ما تخللها من الغث والسمين. ورأيت كلًّا، بقدر وسعه. حام حول مقاصده. وبمقدار طاقته جال في ميدان دلائله وشواهده. وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من عمري. ووقفت على الفحص عن دقائقه قدراً من دهري. أردت أن أنخرط في سلك مفسريه الأكابر. قبل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر. وأكون بخدمته موسوماً، وفي حملته منظوماً. فشحذت كليل العزم، وأيقظت نائم الهم. واستخرت

الله تعالى في تقرير قواعده، وتفسير مقاصده. في كتاب اسمه بعون الله الجليل: «محاسن التأويل»، أودعه ما صفا من التحقيقات، وأوشحه بمباحث هي المهمات. وأوضح فيه خزائن الأسرار. وأنقد فيه نتائج الأفكار، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر. وفرائد عثرت عليها في غضون الدفاتر. وزوائد استنبطتها بفكري القاصر. مما قادني الدليل إليه. وقوى اعتمادي عليه. وسيحمد السابح في لجحه، والسانح في حججه، ما أودعته من نفائسه الغريبة البرهان، وأوردته من أحاديثه الصحاح والحسان، وبدائعه الباهرة للأذهان، فإنها لباب اللباب، ومهتدى أولي الألباب. ولم أطل ذيول الأبحاث بغرائب التدقيقات، بل اخترت حسن الإيجاز في حل المشكلات. اللهم إلا إذا قابَلَتْ فرسانَ مضمار الحق جولةُ الباطلات، فهنالك تُصَوَّبُ أسنةُ البراهين نحو نحور الشبهات.

ولا يخفى أن من القضايا المسلمة، والمقدمات الضرورية، أنه مهما تأنق الخبير في تحبير دقائقه السحية، فما هو إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وما تضمنه من لباب اللباب، لأنه منطو على أسرار مصونة، وجواهر حكم مكنونة؛ لا يكشفها بالتحقيق إلا من اجتباه مولاه، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقي عن خيرته ومصطفاه.

هذا وقد حليت طبعته بتمهيد خطير، في مصطلح التفسير. وهي قواعد فائقة، وفوائد فائقة، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه، وممسكاً لتسهيل خوض عبابه، تعين المفسر على حقائقه، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه.

فدونك أيها الباحث عن مطالب أعلى العلوم، التائق لأسنى نتائج الفهوم، المتعطش إلى أحلى موارده، المنقب عن مصادر مقاصده، ينبوعاً لمعاني الفرقان، وعقداً ضم درر التبيان، وُقِفَ بك من الطريق السابلة على الظهر، وخطب لك عرائس الحكم ثم دُهِبَ لك المهر، فقدِّم قَدَمَ عزمك فإذا أنت بدل الله قد وصلت، وأقبل على ما قِبَلك منه فها أنت قد فزت بما حصلت. وفارق وَهْدَ التقليد راقياً إلى بقاع الإستبصار، وتسنم أوج التحقيق في مطالع الأنظار. والبس التقوى شعاراً، والإتصاف بالإنصاف دثاراً. واجعل طلب الحق لك نحلة، والإعتراف به لأهله ملة. ولا ترد مشرح العصبية، ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية، أنفة ذوي النفوس العصية. فذلك مرعى لسُوَّاميها وبيل، وصدود عن سواء السبيل.

وكان شروعي في هذه النية الحميدة، بعد استخارته تعالى أياماً عديدة؛ في العشر الأول من شوال في الحول السادس عشر بعد الثلاثمائة وألف. نفعنا الله بما يجري منه على يدينا، ولا جعله حجة علينا، ونحن نستغفر الله مما تعاطيناه من الأمر العظيم، واقتحمناه من الخطر

الجسيم، ونستعيذ به من الوقوع في حبائل العدو الرجيم، ونسأله توفيقاً يقف بنا على جادة الإستقامة، ويصرفنا عن عمل ما يعقبه ملام أو ندامة، ونرجو من فضله تعالى حياة طيبة وعزماً تنحط من دونه المصاعب، وعوناً على إكمال هذه المآرب تبيض به وجوه المطالب. وهداية قدسية إلى الطريقة المثلى، وعناية لدنية نقوى بها على تأييد كلمة الحق الفضلى، فهو ولي الإنعام، في البدء والختام.

أسلوبه:

أسلوبه ناصع العبارة، بعيد عن الحوشي من اللفظ، يؤثر السهولة بعبارات رصينة مع البعد عن الكلام المعقد. ولفظه لا يخلو من طابع الجزالة فيضاهي أحياناً أساليب كبار كتاب عصره متانة وفصاحة، وبعداً عن التكلف.

وإننا لنشعر حين قراءة مقدمة التفسير بعاطفة صادقة لتصوير ما يختلج في نفسه وما يكنه فؤاده بحرارة وجودة، من آثار القرآن الكريم، لذا جاء أسلوبه هنا يحمل فخامة الموقف، وفخامة العاطفة وفخامة المعنى، لم تشوبه الكلفة على الرغم مما فيه من الإزدواج والسجع.

آراؤه وإرشاداته:

● لو كان خلفنا كسلفنا في المحافظة على كتابة الفوائد المهمة التي كانوا يسمعونها من أفواه علمائهم الفطاحل، لكان خلفنا قد جمع مجلدات من هذه الأفواه قد ضاعت لعدم حرصهم عليها.

إن الأصمعي كان له تلميذ يلازمه ويحرص على كتابة الفوائد منه، فتضايق صدر أستاذه منه من كثرة كتابته فقال له: أنت كالحفظة تكتب كل لفظة، فقال له تلميذه: وهذه أيضاً تكتب!

● ومن نوادره أنه دخل المسجد الأموي ما بين العشائين مع رفيقه وزميله في طلب العلم الشيخ مصطفى الحلاق، فوقفا هنيهة على مدرس يقرأ في كتاب، ولما وصل إلى قوله: وفضلات النبي طاهرة. . . وحاول أن يشرحها، تألم الشيخ مصطفى الحلاق من هذا المدرس وقال للقاسمي: سرّ بنا فإن هذا المدرس شرع يتحدث عن السفاسف التي لا لزوم لها. . . !

● قال له تلميذه مرة: من المؤسف أن الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا لم يتمما تفسير القرآن، فأجابه: اعلم أن ما كتباه يكفينا في تفسير القرآن كله فقد طرقا كل موضوع مهم.

● إن أكثر طلاقات الناس غير واقعة واستفتي عنها، فلا أستطيع أن أقول للمستفتي: الطلاق غير واقع عليك خشية الأذى والمسؤولية من قبل الحكومة والمفاتي، لذلك أدله على شيخ معروف يرد الطلاقات مهما كانت. لأنقذ هذا المسؤول من الحرج الذي يتبرأ الدين منه.

● يجب أن يكون أرباب الجرائد والمشتغلين بها من العلماء المصلحين، لأنهم هم أرباب التأثير في الأمة، وهم الذين يستطيعون رفع الوطن وانحطاطه.

● إن أسباب الرقي: انتشار هذه الثلاثة: المطابع والجرائد والمدارس، إذا وجهت توجيهاً صحيحاً.

● إنني أحترم كل من يكتب في التفسير والحديث في المسائل المهمة ولو كراساً، فهو أفضل من كثير ممن يعمل الشروح في القضايا والمسائل المعروفة.

● دخل القاسمي يوماً على أستاذه الشيخ بكري العطار فرآه مضطرباً، فسأله: ماذا أصابك يا أستاذي؟ فقال له: إن فلاناً الموظف في المحكمة الشرعية رئيساً للكتاب، لي عنده (معاملة) حبسها لطلب الرشوة، وقد مضى عليها شهر، فإذا كان مثلي وهو شيخ علماء دمشق لا يستطيع أن يأخذ تلك (المعاملة) إلا برشوة فكيف الحال بعامة الناس؟!

فقال له الشيخ جمال: هل تأذن لي يا أستاذ أن أجيبك بحرية وصراحة، فقال له: قل!.

فقال الشيخ جمال: قد عاملك بما تستحق، لأن ديدنك في دروسك العامة والخاصة أنك تنفر الناس من قبول وظائف المحاكم الشرعية وتقول: إن المحاكم (مصاطب) جهنم، فإذا لم يتقدم مثلك لطلب أمثال هذه الرئاسة تقدم الجاهل الفاسد أمثال هذا الرجل الذي تشكو منه مما سبب ضياع حقوق الشرع والناس.

فقال له شيخه: لقد أصبت، فإننا نحن مقصرون في عدم قبول هذه الوظائف للقيام بحقوق العباد!

● يجب على المصلح أن يكون واسع الصدر، وأن لا يكون نفوراً ممن يهجره أو يطعن فيه، بل يتقرب منه ويجذبه بحسن أخلاقه.

● وكان يقول: إنني أستحسن منهاج مدارس الحكومة لما فيه من التنويع ودراسة جميع العلوم لا الإقتصار على علم واحد. وكان يحض بعد الإطلاع على مبادىء العلوم على لزوم التخصص.

وكان يقول: إن أوربا ما غلبتنا واستولت علينا وأصبحنا عالة عليها إلا بسبب إتقانها للعلوم الكونية وإهمالنا لها!

ولا يسعني إلا أن أعلق على هذا الرأي للجمال القاسمي وأقول:
إن هذه المعلومات التي تدرس في المدارس الحكومية عن العلوم الكونية لا تجدي نفعاً كثيراً بسبب سوء طريقة تدريسها، فهي تعلم بصورة نظرية لا تجريبية غالباً فتنهك عقول الطلاب بسبب الحفظ الذي لا يلبث أن ينسى.

● إن مذهبي أن لا أتقيد بمذهب من المذاهب بل آخذ من كل مذهب بما كان أقوى دليلاً.

● الفرق بين أهل السنة الحقيقيين وغيرهم من العلماء أن أهل السنة يصرحون بما لهم وما عليهم بعكس أهل البدع فإنهم لا يصرحون إلا بما لهم.

● من الضروري على العالم أو غيره أن يكون حسن الهندام، فإن حسن الهندام ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكون صاحبه محترماً في الأعين ومراعاة حسن الهندام من السنة المحمدية.

● كان القاسمي رحمه الله يرى أنه لا يجوز الإستشهاد بالأحاديث الضعيفة، وينصح من يستشهد بها أن يشير إلى ضعفها.

ويرى أن كل من يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة كأنه يعلن أن الشريعة قاصرة، فلا بد من إتمامها بهذه الأحاديث مع أننا إذا بحثنا في القرآن والأحاديث الصحيحة نرى ما يغنينا عن الإستشهاد بها.

وكان يقول: رحم الله الإمام مسلم، فقد قال في مقدمة صحيحه: كل من يروي الأحاديث الضعيفة وهو عارف بها فهو آثم غاش للمسلمين[1].

وقد ذكر في أحد كتبه سهواً حديثاً طعن فيه المحدثون، مع أنه قد عزاه إلى مرجعه، فنبهه أحد الجامدين إليه، فسر وقال: يا ليت هؤلاء الجامدين يشغلون أوقاتهم في الكتاب والسنة وينبهوني عن هفواتي لأجتنبها، غير أنهم ويا للأسف يشغلون جميع أوقاتهم في خدمة آراء الرجال وفهم كلامهم. ويعرضون عن الإشتغال بالكتاب والسنة، ويصدون الناس عنها،

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ص ١٢٣ بشرح النووي.

فهم يملأون خطبهم ومواعظهم ودروسهم بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ليضلوا بها العامة ويحصلوا على أموالهم.

وإذا سئلوا عن حديث ذكروه عمن رواه من المؤلفين وما درجته من الصحة. فإما أن يتهربوا من السؤال أو أن يكذبوا في العزو.

● إن من يقرأ كتب الحديث وأسئلة الصحابة للرسول ﷺ وأجوبته لهم يخيل إليه أنه معهم فينسى وجوده بين زملائه.

● وكان من جملة آرائه أنه ينبغي الرد على الخصم مهما كانت دعواه سخيفة واستدل بقوله تعالى على لسان اليهود: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾** فرد الله عليهم بقوله: **﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان﴾**.

● وكان يقول: نحن مبذرون كثيراً في بيوتنا، فلو اقتصدنا واكتفينا بالقليل، كما نفعل لو كنا في أحد المطاعم، لوفرنا كثيراً من المال، فإننا في المطعم نكتفي بما نطلبه ونخرج قانعين بما أكلنا بعكس ما نفعل في بيوتنا.

● يجب قراءة مقدمة كل كتاب وخطبته لنعرف منهاج المؤلف والغاية من تأليفه، وكان معجباً بمقدمة صحيح مسلم، فقد قرأها وعلق عليها وكان يقول: إنها تصلح لتكون رسالة مستقلة في فن الحديث.

● إن الحكومة لو أرادت أن تضع في مستشفى الأمراض العقلية كل من تكون أفعاله شاذة عن المعقول، لما كفتها المستشفيات الكثيرة، فهي تفعل ما في قدرتها، لذلك تكتفي بالمجنون الخطر وتترك سواه!!

● إننا لو بعنا ديننا بدنيانا لكنا أمهر من هؤلاء الذين باعوا أخراهم وذلك بسبب ما منحنا الله من قوة العقل.

ولكن الله عصمنا، فأف لمن يبع دينه في سبيل المال!

● وكان من حسن تدبيره أنه كلما قرأ كتاباً يجعل له فهرساً بأهم محتوياته ليسهل عليه وعلى غيره مراجعة المباحث الهامة.

● ومن آرائه أن بعض العلماء إذا نقل إليه قول بلفظ قيل استدل على ضعفه بسبب هذا التعبير.

مع أنه قد يكون عند قائله أقوى من غيره لذلك ينبغي الترجيح والتضعيف بمبلغ

الدليل والبرهان لا لأقوال الناس وحكاياتهم له بلفظ قيل.

ومن النوادر في هذا الموضوع أن أحد الشيوخ سئل عن آية: وقيله يا رب. فأجاب: إنه قول ضعيف في مذهبنا!!

ذكر الله تعالى القلة في معرض المدح والكثرة في معرض الذم. فقال: إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، وقال: ما آمن معه إلا قليل، وقال: وقليل من عبادي الشكور، وقال: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

لذا كان مدار الحق على صحة البرهان لا على الكثرة!!

● هناك كثير من الناس يلومون المصلحين إذا تحدثوا عن بعض الشخصيات المبتدعة، حية كانت أم ميتة ظانين أن هذا الصنيع مغيبة منهى عنها، وهذا من الخطأ الواضح، فإنه لا بد من ذكر المسيء لدينه إذا وجدت المصلحة.

وقد ذم القرآن كثيراً من المضللين والمفسدين، بذكر أسمائهم وأوصافهم كما ذم الموالين لهم.

● إن الجرح والتعديل باب من أبواب الدين، ولولاه ما أثبتت صحة هذا الدين العظيم.

● إن خير طريقة لنشر مبدأ السلف الإنكباب مع الخصم على دراسة كتب السنة الصحيحة.

● كلما تقربت من سيرة سيد المرسلين ﷺ بعدت عن آثار الشياطين.

● قال لتلميذه مرة: تعال أدلك على أهل الجنة وأهل النار، فسار معه وأشار له إلى أناس مضرين بدينهم ووطنهم وأمتهم فقال: هؤلاء من أهل النار.. ثم دلهم إلى جماعة من المصلحين لأمتهم فقال هؤلاء من أهل الجنة وهكذا. وتلا قوله تعالى: **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى...﴾**.

● إن كثيراً من الناس هو بصورة البشر، ولكنهم في الحقيقة أفاعي وحشرات سامة.

وكان رحمه الله لا يقرأ القرآن إلا إذا كان بهامشه تفسير له كيلا تفوته كلمة من معناه.

وهذا منتهى الحكمة التي يغفل عنها الكثيرون، وكان يحث الناس على ذلك، وقد رجوت إحدى دور الطبع والنشر في دمشق لطبع غريب القرآن على هامش المصحف وقدمت لها أحد كتب الغريب فلم تفعل.

وإنني جاد لإقناع غيرها، ولو كان لي من الأمر شيء لمنعت طبع القرآن الكريم أو أجزاءه دون تفسيره أو غريبه على الأقل، فإن هذا الكتاب السماوي العظيم جاءنا لنتدبر آياته ونعمل بها بإخلاص، ولكن أكثر المسلمين ويا للأسف قد اكتفوا بتلاوته للبركة والثواب دون تفكير ولا تدبر ولا يذكرونه إلا عند ذكر الموتى، ناسين أو متناسين أنه أنزل للأحياء ليطبقوا ما جاء فيه في محاكمهم ومدارسهم وندوتهم النيابية وجميع شؤونهم.

● وكان يرى القاسمي وجوب الإهتمام بالشباب والفتيان، فهم ذخر الأمة ومحط آمالها، وإن الدعوة قل أن تفيد الشيوخ إلا نادراً. وتلا قوله تعالى: ﴿**سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم**﴾ وقوله: ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾.

وذكر الشيخ بهذه المناسبة قصة أسامة وجعله قائداً في جيش فيه أبو بكر وعمر وتحدث عن قسم النبي ﷺ له بقوله لما سمع الإعتراض على تعيينه:
«إنه والله لحري بالإمامة!».

وكان يحمل على التعصب المذهبي الذي كان سبباً في جمود المسلمين وتأخرهم وفساد أنظمتهم مما أضاع حقوق الأمة وهددها بالهلاك حتى أصبح الحكم يدور حول مصلحة الحاكم، فإذا أراد أن يقتل بريئاً لأغراضه أحاله على القاضي المالكي الذي يقول مذهبه بجواز القتل تعزيراً، وهكذا حتى وصل الحال أن الأمة تخضع وتحكم حسب مذهب حاكمها، فأيام الأتراك كانت المحاكم تحكم على مذهب الأحناف وقبله على مذهب غيره. وقد توسع الأمر إلى وجود أربع محاكم على أربع مذاهب. فيا ضيعة الحقوق ويا خشية الفوضى!

مما سبب نفور الناس وترك الشريعة والإرتماء في أحضان القوانين والأنظمة الأجنبية.

وقد ثبت أن الخلافة العثمانية طلبت من فقهاء المذهب الحنفي (المذهب الرسمي وقتئذ) أن يعدلوا مجلة الأحكام الشرعية ويأخذوا من المذاهب الأخرى وتعديل ما جاء فيها مما يتعذر تطبيقه، فأبوا تعصباً لمذهبهم وحسداً للمذاهب الأخرى مدعين أن ذلك يعتبر تلفيقاً مما دفع المسؤولين دفعاً إلى إهمال الشريعة والأخذ بالقوانين الأوربية.

● وكان رحمه الله يأمر كل تلميذ له أن يستصحب معه مفكرة على الدوام ليسجل عليها كل فائدة يسمعها، أو كل حادثة تقع معه، وكان يقول: لو كان كل منا يجمع كل ما سمع من المسائل المهمة لتم جمع أعظم مما كتب في كتب الأدب والدين.

وكان ينصح تلاميذه إذا اجتمعوا بعالم مفكر مستنبط من الكتاب والسنة، ولو كانت بعض آرائه لا تطابق آراءهم، أن يصغوا إليه ويشجعوه ويحترموه ليأخذوا الفائدة العاشرة ويلقوا البقية إذا لم تصح لديهم!

رأيه في تعدد الأئمة:

كان ولا يزال في جامع سنان باشا إمامان شافعي وحنفي يصلي أحدهما عقب الآخر مما يسبب تفرق المسلمين ويتنافى مع آراء أكثر الأئمة وروح التشريع الإسلامي الداعي إلى جمع الكلمة.

وكان الجمال إماماً للشافعية يصلي بالناس قبل الإمام الحنفي، فقال يوماً:
إن وجود إمامين يتعاقبان مخالف للإسلام، فاعلم أنه لو كانت العادة أن يصلي الشافعي بعد الحنفي لاستقلت من هذه الوظيفة كيلا أقع في هذا المحذور المخالف للدين.

كان القاسمي معجباً بقصة لزميله الشيخ مصطفى الحلاق. فسئل عنها مرة فقال:
جاء رجل ومعه إحدى الحواشي وقال له إنني أريد أن أقرأ هذه الحاشية عليك.
فقال له الشيخ مصطفى: إن قراءة هذه الحاشية لا تفيدك لا في الدنيا ولا في الآخرة.
فاستغرب الطالب هذا الكلام من الشيخ وسأله: ولماذا؟
فقال له: لو حفظت هذه الحاشية رواية ودراية لا يمكن أن تصير مفتي دمشق مع وجود فلان وعلتان وغيرهما من المتنفذين والمتزلفين.

هذا في الدنيا. وأما في الآخرة فليس في هذه الحاشية إلا التقليد وخدمة آراء الرجال ومفاهيمهم، فإذا كنت تريد الآخرة فعليك بقراءة كتاب شرح الروضة الندية لصديق علي خان فهو أفضل كتاب في الفقه لإتيانه بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة.

ويحسن أن نذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ المحدث محمد ناصر الدين الألباني ما يزال يدرسنا الفقه من هذا الكتاب ويحقق أحاديثه بهذه المناسبة في نسخته الخاصة، فكم نأمل أن تطبع هذه التحقيقات بعد الإطلاع على تحقيقات الجمال القاسمي، فقد علمنا أن له دراسة للروضة الندية[1].

ما أكلت بديني:

كان الجمال القاسمي معجباً بالشيخ سعيد المجتهد، وقد قص علينا آخر ما فاه به للشيخ العطار فقد حدثنا أنه قال له:
إنني ذاهب للقاء ربي وأريد أن أحملك شهادة قبل أن أفارق الحياة لتشهد بها لي أمام الله

(١) لم نتأكد من وجود هذه الدراسة فقد سألت الأستاذ ظافر القاسمي عن مؤلفات والده، ولم يذكر عنها شيئاً. وأما تعليقات أستاذنا الألباني فإنها لم تتم بعد - زهير -.

يوم القيامة، وهي أنني منذ اشتغالي بالعلم إلى هذه اللحظة من الحياة ما أكلت بديني، إنما آكل من كسب يدي بالتجارة.

وكان القاسمي يريد من روايته لنا بهذه القصة أن يغرس في نفوس تلاميذه حب الإعتماد على النفس وعدم الركون إلى السلطة ومسايرتها على ضلالها رغبة وعبداً بالراتب. وقد ضرب لنا مثالاً على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه قد عرض عليه الحاكم وظيفة قاضي عسكر براتب عظيم فأبى قبولها خشية أن يكون أسيراً له.

مكتبة القاسمي:

مكتبة القاسمي منشؤها مكتبة جده الفقيه الأديب الشيخ قاسم الحلاق ومكتبة والده الشيخ محمد سعيد القاسمي الذي برع في الأدب، ثم زاد عليها رحمه الله فأصبحت ثمينة حوت كتباً خطيةً ومطبوعة، تحتوي على نفائس المؤلفات من جميع العلوم، ثم زاد عليها أقرباؤه حتى أصبحت مكتبة زاهرة اشتملت على ما لذ وطاب من العلوم وضعت في خزائن طريفة على الطراز الحديث لتحفظها من التلف.

هذا. وإن الشيخ جمال كان رحمه الله أعلن في الصحف أنه أوقف مكتبته لكل مطالع وقد خصص لها حفيده بهواً كبيراً في حي المهاجرين (شطا) وباباً خاصاً يدخل منه من أراد المطالعة إلى يومنا هذا، وقد رتب لها فهرس خاص يسهل الدراسة فيها.

وكان يرى أنه لا يحق لكل من كان يملك مكتبة وليس للورثة اضطرار إلى ثمنها، أن يبيعها، خشية تفرقها، وضياع الفائدة منها، بل كان يرى وقفها على المطالعين. وصدف في حياته أن أحد العلماء مات عن مكتبة عظيمة خطية فيها كتب قيمة، فباعها ولده الجاهل، فلامه بعضهم، غير أن القاسمي حبذ عمله وقال: إن المكتبة كانت مجهولة عن العلماء فجعلها في متناول أيديهم!

وكان من رأيه أنه إذا استعار شخص من آخر كتاباً غير مجلد أو أن جلده قد بلي، أن يسارع إلى تجليده وإرجاعه إلى صاحبه مجلداً. وقد ذكر ذلك في كتابه الآداب.

لقد كان لا يضن على أحد بإعارة الكتب، على الرغم ممن قد استعار وأضاع! وذلك خلافاً لعادة كثير من العلماء الذين يبخلون بكتبهم حتى على ذويهم لمعاذير واهية. وكان إذا أعار أحداً كتاباً، وأرجعه له دون أن يجد فيه آثار المطالعة عاتبه ولامه قائلاً له: إنني لم أر آثار مطالعتك على الكتاب، فيظهر أنك مسسته مساً! ويذكرني كرم القاسمي بكتبه بأريحية أخينا في الله عبد الرحمن القاسمي مفتش الدين بوزارة التربية والتعليم، فإن له مكتبة قيمة يغذيها بالكتب الجديدة على الدوام، وهو لا يعيرها لإخوانه فقط، بل هو يعرضها عرضاً

عليهم بحسب اختصاص كل منهم، فكثيراً ما زرته في داره ويقدم لي بعضها، أو يبعث بها إليّ إلى الدار!!

شعر الأديب:

كان للقاسمي رحمه الله بعض ميل للشعر، وإذا أراد أن ينظم كانت البديهة تحده. وقد كان يقول: إنني أحببت أن أسترسل في الشعر وأتخصص به، لكنني ذكرت أن أكثر الشعراء ديدنهم في شعرهم الهجاء والمدح، فكرهت أن أكون هجاءً أو مداحاً.

وقد تألم من شخص مرة لعدم استقامته فنظم شعراً في هجائه وتلاه على طلابه، فسارع بعضهم إلى نقله، فمنعه ومزقه وقال له: لا أريد أن يعرف عني الهجاء، بل أستعين على الإصلاح بغيره فكم من أمور تقوم مقامه.

ومن نظمه ما كتبه في مستهل كتابه دلائل التوحيد:

أدلة في وجود الحق قاهرة	راحت لها شبه الإلحاد منكسرة
الحق يعلو ولا يعلى عليه فمن	ناواه كانت جنود الله منتصرة

وقد كتب في الثناء على قاموس مختار الصحاح:

لمختار الصحاح على الألبا	عوارف حق أن ترعى وتشكر
فإن كان الصحاح له أيادٍ	فللمختار فضل ليس ينكر

وأنشد يرد على الشيوخ الجامدين الذين اتهموه بأنه يدعو إلى مذهب خامس ووشوا به إلى الوالي حتى حبسه:

زعم الناس بأني	مذهبي يدعى الجمالي
وإليه حينما أف	تي الورى أعزو مقالي
لا وعمر الحق أني	سَلفيّ الإنتحال
مذهبي ما في كتا	ب الله ربي المتعالي
ثم ما صح من الأخ	بار، لا قيل وقال!
أقتفي الحق ولا أر	ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلاً	وعمى في كل حال!

وقال أيضاً في هذا المعنى:

أقول كما قال الأئمة قبلنا	صحيح حديث المصطفى هو مذهبي

أألبس ثوب القيل والقال بالياً ولا أتحلى بالرداء المذهب[1]

طلاب المصلح:

لقد تخرج في حلقات دروسه كثير من العلماء ورجال السياسة والأدب نذكر منهم عبد الرحمن الشهبندر وعبد الوهاب الإنكليزي وشكري العسلي ورشيد بقدونس وتوفيق البذرة وبهجة البيطار وجميل الشطي ولطفي الحفار وحامد التقي وجميل البيطار وسليم الجزائري وغيرهم.

وكان ـ رحمه الله ـ مع طلابه كالصديق مع صديقه، يعطيهم الحرية في البحث، قال تلميذه: باحثته مرة وخالفته في رأيه فأبطل رأيي بالأدلة، فلم أقتنع وقلت له: لم أقتنع. فقال لي: أنت حر لك رأيك ولي رأيي!

وقد دهشت من سعة صدره مع تلاميذه حتى قلت:

ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم.

وكان من أخلاقه الكريمة مع تلاميذه أنه كان يعلمهم الإعتماد على النفس والبعد عن قبول الصدقات والأمر بالسعي والعمل. فكان إذا أراد أن يتصدق على بعض هؤلاء التلاميذ يأمرهم أن ينسخوا له بعض مسوداته ثم يكرمهم باسم الأجرة لا باسم الصدقة. وكان إذا رأى بعض تلامذته لا يهتم بحسن هندامه ينزعج منه ويأمره بحسن اللباس بعد أن يبين له فائدة حسن الهندام في عيون الناس، الأصدقاء منهم والأعداء.

وكان يقول لطلابه: إياكم أن تأمروا أولادكم بشيء دون أن تذكروا حكمة الطلب وفائدته ليتنبه ابنكم للحكمة، فلا يطيع طاعة عمياء. وكان يقول: قد علمنا الله تعالى الأخذ بالدليل في كل شيء حتى في الأخلاق التي تعرف فائدتها بالبداهة. قال سبحانه: **﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾** فأعقب عز من قائل الحكمة من الأمر بالدفع بالتي هي أحسن بقوله: فإذا الذي بينك وبينه...

قال تلميذه: كنت مرة أحضر درس شيخنا، وعند الإنصراف قمت مودعاً له فسقط من جيبي قبضة من البذر المحمص، فطلب إليّ البقاء وحدي. ثم قال عند انصراف زملائي:

يا بني! إن الشخص الذي يريد أن يعيش مصلحاً بين قومه، فيغير ما بهم من العادات السيئة، ويعلمهم العقيدة السلفية البعيدة عن الشرك والبدع والأوهام والأخذ بالدليل

(١) المنار ج ٨ م ١٧ ص ٦٣٣.

والبرهان لا بالتقليد، هل عنده وقت لإضاعته بأكل البذر الذي هو طعام من يريد تضييع حياته كالصبيان والنساء الجاهلات.

ومنذ ستين سنة عينت مدرساً عاماً في حوران وكانت في ذلك الوقت متأخرة جداً، فشعرت بغربة فيها وكتبت إلى أستاذي القاسمي:
أنني عزمت على الإستقالة لأنني رأيت نفسي قد انتقلت من العلم إلى الجهل ومن النعيم إلى الجحيم.
فأجابني برسالة مطولة فحواها: إنني علمتك السنين الطويلة لترينا خدمتك للعلم وآثارك في مثل هذه البلاد التي هي متعطشة لأمثالك.

وأما عندنا فيوجد أمثالك الكثيرون فاثبت في وظيفتك واعمل فسيرى الله عملك!

قال تلميذه: كنت ألازم شيخنا رحمه الله في اليوم عدة مرات صباحاً وبعد العصر وبعد العشاء. فقال لي مرة: إنني أرى الإستغناء عن درس العشاء، فأطعت أمره. وبعد بضعة أيام قال لي: ارجع إلى درسك كالسابق، فقلت له: يا سيدي ما السبب الذي دعاك لتركه ثم لإرجاعه؟

فقال لي: الليل قصير، فرأيت أن أنام باكراً لأستيقظ باكراً، ولكنني لم أستطع النوم باكراً وصارت جلستي مع النساء، فتباعدت عن دروس العلم وضاعت سهرتي دون فائدة. ولما كان الطبع يسرق طبع جليسه، فخشيت أن تصير أفكاري نسائية، ويقصد بذلك النساء غير المتعلمات!

وكان ـ رحمه الله ـ يستصحبني في حضره وسفره للإشراف على تربيتي، أخذني مرة إلى وليمة، فشرعنا نأكل مما لذ وطاب، وبعد مدة قام فاضطررت إلى القيام معه دون أن أقنع منه، فذكرت له بعد خروجنا من دار الضيافة أن نفسي ما زالت في الطعام، وقد قمتم قبل أن أنتهي منه. فأجابني: إنني كنت أراقبك، وقد شبعت من مدة، وأنا أنتظر ثم رأيتك قد شرعت في الإضرار في جسمك بكثرة الطعام، لذلك سارعت في القيام خوفاً على بطنك!

وهكذا كان رحمه الله يتولى مراقبة طلابه وحسن توجيههم، فلا يكتفي بتعليمهم العلوم كما هي حال كثير من أساتذة اليوم دون الإشراف على تربيتهم لما للعلم من خطر دون الأدب!

كان يسعى على الدوام لغرس علو الهمة في طلابه. قال لتلميذه مرة:
قد علمتك علوماً كثيرة فهل تذكرها؟ فعددها له. فقال بعد ذلك: بقي علم واحد لا أستطيع أن أعلمك إياه وهو أن تكون ذكياً بحاثاً لبقاً. فكن من نفسك كذلك.

وكان أحد طلابه يقول عنه:

إن الله قد عجل بوفاة شيخنا دون أن يعمر طويلاً ليسارع في إكرامه ومكافأته على حسن أعماله. فإن قيمة الإنسان ليس بطول عمره بل بكثرة العمل.

وقد قال الشيخ بهجة البيطار أحد زملائي في الدراسة على القاسمي رحمه الله: إننا جاوزنا عمر شيخنا بعشرات السنين، ولم نعمل ربع عمله. وهذا من جملة ما يؤسفنا ويجعلنا نقر بتقصيرنا.

وكان من ديدنه رحمه الله تقوية شخصية طلابه ورفع مكانتهم، فلم يكن يدعوهم بالتلامذة بل بالأصحاب أسوة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا منتهى الأدب وحسن التربية. وكتب في إجازته لتلميذه بخطه الحسن العبارة التالية:

«لقد طلب مني مصاحبنا وقريبنا الشيخ حامد التقي الإجازة فرأيته أهلاً لذلك، فليرو عنا ولدنا المذكور ضاعف الله لنا وله الأجور...».

وقد كان القاسمي بهذه الأخلاق الكريمة موضع إعجاب طلابه. فقد كان يقول أحدهم وهو الشيخ توفيق البذرة: إن من يلازم شيخنا القاسمي ويرى علمه وسيرته، قل أن يعجبه كثير من شيوخ اليوم الذين يدعون التربية وهم غلاظ الأكباد قساة القلوب. ومن عجيب هذا الزميل أنه لم يكن لديه موهبة شعرية غير أن إعجابه العظيم بأستاذه أنطقه بالشعر حين موته، فرثاه بأبيات سنذكرها عند الكلام عن وفاته.

وكان أستاذه الذي علمه القرآن في المكتب يلازمه ويحضر دروسه في الوعظ، ومن كثرة إعجابه بالقاسمي فقد كان يرتمي عليه ويقبل يده بعد الإنتهاء من الدرس. فيعتذر شيخنا قائلاً: إنك أستاذي أيها الشيخ، فيقول له: ألا تسمع المثل السائر: كم من صغير نشأ، الكبير قبل يده!

ومن عظيم توجيهاته وإخلاصه أنه خلافاً لكثير من الشيوخ كان يأمر طلابه بالذهاب إلى بعض المتخصصين ببعض العلوم الشرعية التي لم يتخصص بها. بل يأخذهم بيده إليهم ويوصيهم بتعليمهم، فأين هذا الصنيع من بعض الشيوخ الذين يعاقبون طلابهم إذا بلغهم أنهم يقصدون غيرهم من العلماء، وقد سمعنا بعض هؤلاء المخرفين الأنانيين يقولون في دروسهم: كما أن المرأة لا تصلح أن تكون بين زوجين، كذلك لا يصلح الطالب أن يكون بين عالمين!.

وكان يغرس في طلابه علو الهمة على الدوام. قال يوماً لأحدهم يعاتبه:

«إنني لازمت أساتذتي ربع الزمن الذي لازمتني فيه، ثم انفصلت عنهم ورتبت خطة أسير عليها لخدمة العلم وإرجاع مجد الإسلام، والقيام بالرسالة التي ينبغي أن يقوم بها كل مصلح وأهم أهدافها: بيان عظمة الإسلام وأنه صالح لكل زمان ومكان وتنبيه الناس إلى ما دخل عليه من بدع وخرافات هي غريبة عنه». ثم التفت إلى هذا الطالب وقال له: عليك بالمسارعة بالعمل قبل فوات الأوان.

وملخص القول إن جمال الدين استطاع أن يبعث في طلابه قوة فياضة، وينفخ فيهم من روحه، حتى تفتحت قلوبهم على نور الحقيقة، فوجدوا أنفسهم أنهم في ظلمات بعضها فوق بعض، فمزقوا حجب الأوهام وأخذوا يشقون لأنفسهم طريق الحياة الصحيحة من جديد.

وكان من روائع أساليبه التربوية أنه كان يقول لطلابه: عليكم أن تفكروا بتفكير خصوم السلفية وتأتوني بحججهم وشبههم لأرد عليها.

وهكذا كان يستمع إلى تلاميذه ويسجل الشبه التي تخطر على بالهم.

وقد أورد له طلابه يوماً شبهة على لسان الخرافيين فقالوا:

إن ما تنقلوه إلينا من آراء الصحابة لم ينقل إلينا بالضبط كما نقل إلينا أقوال الأئمة الأربعة.

فأجاب بما يبهت الخصم: إن أقوال الصحابة مدونة في كتب الحديث التي وصلت إلينا بالتواتر مع أننا يصعب علينا جداً أن نصل إلى كتاب يعرفنا بآراء أحد الأئمة الأربعة إلا قليلاً. وكل ما بيد المقلدين اليوم عبارة عن آراء متأخريهم.

قال له تلميذه يوماً: إنني أود الذهاب لأشاهد خزعبلات إحدى الطرق للتسلي وسماع الأصوات الموسيقية، فمنعه من ذلك وقال: لا تكثر سواد المبتدعة، ولا تكن قدوة سيئة لغيرك.

دعاه تلميذه مرة إلى طعام في داره وأعد له أنواعاً من الأطعمة الشهية، فاعتقد أن تلميذه تكلف له بما لا يطاق بالنسبة لمورده مما هو منهي عنه شرعاً.

ففاجأه الشيخ بقوله: هذا طعام البخلاء! فاستغرب التلميذ قوله وظن نفسه مقصراً في الضيافة، فسأله: لماذا كان هذا طعام البخلاء؟

فقال له: إن البخيل يتكلف بصورة غير معهودة علماً منه أنه لن يعود للوليمة مرة أخرى. وبعكس الكريم فإنه يتهيأ دائماً لإطعام الطعام ولو مما عند أهله. وبرأينا أن المقصود بالتكلف أن يستدين المضيف، وإلا فليس ما يمنع من زيادة إكرام الضيف.

قال تلميذه: كنت يوماً أدرس التفسير وكان بضيافة أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري فسألته عن تفسير كلمة لغوية.

فنهرني الجزائري وقال: هلا بحثت عنها في القاموس قبل مجيئك إلى درس الشيخ. إنه ينبغي أن تحضر الدرس قبل مجيئك، وإذا استشكل عليك أمر بعد ذلك فاسأل الشيخ، ولا يجوز أن تسأله مسألة إلا إذا صعبت عليك بعد طول البحث.

فقلت: إنه ليس عندي قاموس، فقال: بع عمامتك واشتره.

فسر القاسمي من هذا التوجيه وبعث الإستقلال والإعتماد على النفس في الطلاب وقال للشيخ الجزائري:
أشكركم على حسن توجيهكم.

نموذج من الدفاع عن القاسمي:

ذكر لنا الأستاذ الفاضل الشيخ حامد التقي أنه زار مرة بصحبة الشيخ بهجة البيطار: أحمد الحسيني وهو من مشاهير العلماء الموسرين، فقدم كل من الأستاذين نفسه إليه قائلين: إننا من تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمي.
فأجابه الحسيني: رحمه الله.

وتطرق الشيخ بهجة البيطار إلى ذكر خدمات أستاذه القاسمي للعالم الإسلامي.

وقد كان الحسيني على غير مشربه، فطعن في الشيخ جمال.
تأثر من عمله الشيخ حامد وقال له: كأنه قد غاب عنك ما يجب من ذكر محاسن الموتى.
فقال الحسيني: اعلم أن الجرح والتعديل باب من أبواب الفقه.
فأجابه: نعم الأمر كذلك، وجرح وتعديل القاسمي يكون من وظيفتي وقد لازمته خمسة عشر عاماً، لا من مثلك وقد اجتمعت به مرة أو مرتين.

فبهت الحسيني ولازم السكون ولم يستطع الجواب.
ثم سأله الشيخ حامد: وما سبب طعنك بالشيخ؟

فقال: لقد طبع رسالة عزاها لأبي شامة الثقة عن الشافعية، وموضوع هذه الرسالة ما أضر الفقه إلا المقلدون من الأئمة، والأئمة منهم براء، وهي مفتراة عليه. لأن أبا شامة لا يقول ذلك، فقال له: أنا رأيت النسخة القديمة التي نقل عنها القاسمي، وما على الناقل ملام.

وفاته ـ رثاؤه

انطفاء المصباح المنير:

بعد عودة الأستاذ من رحلة فلسطين التي رحلها في سبيل الإجتماع بالمصلحين والعلماء والإطلاع على الكتب النادرة، أصيب بالحمى أياماً قليلة وعاده الطبيب عبد الرحمن الشهبندر[1] فعرف أن مرضه مميتاً فتأسف وقال: أف لعن الطب إذا كان صاحبه لا يستطيع أن ينجي حبيبه.

وبعد أيام قليلة فارق الحياة وصعدت روحه إلى بارئها بعد نضال استمر سنين طويلة مع المبتدعين والحسدة ورجال الحكم.

وقد ترك ذخيرة عظيمة من المؤلفات، كان باستطاعته نشر عشرات أمثالها لو تسنى له جو هادىء بعيد عن مشاغبات الأشرار والمفسدين. وهكذا يخسر الشرق كنوز مصلحيه بسبب مقاومة المبتدعة والمغرضين الذين يحرصون على ما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يعقلون.

وقد خرجت له جنازة قل أن يكون لها نظير في كثرة المشيعين حتى أعدائه.

وهنا صح ما قاله أحد علماء السلف للمبتدعين: «الفارق بيننا وبينكم يوم الجنائز» حيث يخفى الجسد ويعرف الناس من خدم الدين من غيره.

وقد رثاه عند موته الكثير من طلابه منهم الشاعر عبد الرحمن القصار[2] بقوله:

على فقد ركن بالوقار مجلل ... (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
قفا نبك من ذكرى إمام قضى ولم ... يدع أملاً في راحة لمؤمل
قفا نبك من ذكرى عزيز قضى ولم ... نذق بعده إلا مرارة حنظل
قفا نبك ركناً هد ركن اصطبارنا ... بمعول رزء بل مصاب مزلزل

---

(١) هو الزعيم السياسي المشهور قتل في دمشق في ٢٠ تموز سنة ١٩٤٠ م.
(٢) هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد القصار كانت وفاته سنة ١٣٥٠ هـ.

قفا نبك شمس العلم والحلم والتقى   ونندب كنز الفضل غيث التفضل
لنبكِ جمال الدين بدرَ كماله   بدمع حديث عن أسانا سلسل
سأبكيه بالعين التي كم تمتعت   بمرأى محياه البديع المكحل
سأبكيه بالدمع الذي إن نثرته   تنظم دراً في مراثيه ينجلي
له الله فرداً في الفضائل جامعاً   فيا لك من فرد يعد بجحفل
ويا قبره بالله كيف وسعته   فإنك من بحر الجواهر ممتلي
فتىً كان كالروض الأنيق لمجتنن   وكالشمس فضلاً وابتهاجاً لمجتلي
وقالوا قضى نحباً ولكنه قضى   على كل حشوي غوي معطل!
قضى قبل أن يقضي على كل باطل   بصارم برهان من الحق منزل
لئن أنكروا شمس العلوم فإنهم   يهيمون في ليل من الجهل أليل
رحلت جمال الدين منا مشيعاً   بكل فؤاد في لظى الحزن يصطلي
أتيت بعصر كنت فرداً به وقد   رحلت بوقت من مثالك يحمل
تحل بعفو الله والخلد لائذاً   بظل لواء المصطفى خير مرسل(١)
أنالك في الأخرى شفاعته غداً   ومن حوضه يسقيك أعذب منهل
ويا لك من رزء به كم تقوضت   مجالس وعظ بالجمال مكلل
ويا لك من خطب بمنعاه كم قضى   على خطب تزرى بترجيع بلبل
أيا نعش لم لم تسم فيه إلى بنا   ت نعش فمأوى البدر بالمنزل العلي

ورثاه الشيخ جميل الشطي بالقصيدة الآتية(٢):

لله فاجعة الإمام القاسمي   ما كان أسوء وقعها في العالم
رزء غداً في الدين أكبر ثلمة   وأتى لصرح العلم أعظم هادم
هو شيخنا وجمالنا وحبيبنا   العالم ابن العالم ابن العالم
من مثله في القوم يرجى دينه   والدين لا نلقاه غير مراسم!
من مثله في القوم يذكر علمه   والعلم لا نلقاه غير عمائم!
من مثله في القوم يحسن خلقه   والخلق أصل في صلاح الآدمي
من مثله في القوم يدهش حزمه   والحزم يعرف منه عقل الحازم
من مثله في القوم يعشق لطفه   واللطف يجذب منه قلب الناقم
كهل وقد خضع الشيوخ لفضله   في مشرب يصفو وخلق هاشمي
نفس زكت وعن الحطام ترفعت   وعلى الأنام سمت بفرط مكارم

(١) ظل لواءه ﷺ يوم القيامة، وهو اللواء المحمود لمن تطالهم الشفاعة - زهير -.
(٢) هو أستاذي العالم الجليل مفتي الحنابلة بدمشق وقد كانت وفاته ١٣٧٩ هـ تغمده الله برحمته - زهير -

يــا شـؤم يــوم مسـتــطير شــره قــلبـت مـفــاتـنهــا بــه طـفــارم
ولكم فتى قـد صاح فيـه كفـازع ولكم فتى قــد نـاح فيــه كهـائم
حـزنـان حـزن عم كـل معـاصـر فـاعجب وحزن خص كـلا ملازم
مـن بعــده لـلدرس في تقــريــره والـــدرس يبكيه بـــدمـع سـاجم
من بعــده لـلطرس في تحــريــره والـــطرس يــرثيــه بحــزن دائـم
يــا نكبـة في الشـام بعـد فــراقـه عقــدت لهـا أبــداً كبــار مــآتم

* * *

دعــواه قــال الله قــال رســولــه والـعقــل رائــده فيــا لـلواهــم!
ظهـرت لـه حشـويـة من شــأنهم نقــد الجـديــد ونصــرة المتقـادم
فغــدا يــريهم كـل يــوم نكتـة عـلميــة فيــردهـم كبـهـائـم!
من كـل تـأليف يفـوق بـوصفـه ويــجمعــه يحلو لـكـل منـادم
حتى عــلا في كـل قــطر شـأنـه ودرى المفكـر صـاحيـاً من نـائم
مهـلاً عـداة المصلحـين عـدمتكم إني لــكــم والله غــير مـســالم
هـا نحن بالمـرصاد أنصـار الهـدى نـدعـو إلى الجـولان كـل مـزاحم
إن كـان مـات القــاسمي فـإنكم ستـرون منـا كـل يـوم قــاسمي!
نحمي طــريقتـه ونــرعى عهـده في الحق لا نخشى مـلامـة لائم

* * *

رحمــاك يــا أستــاذ كيف أمرتنـا بـالـوصــل ثم قـطعتنــا بصـوارم
فـارقتنا من حيث يسقمنـا النـوى أرضيت أن نـبقـى بـسـقـم لازم
لـكن روحــك بـيننــا منشــورة فــالفـرد نعـدلـه بجمـع سـالم
لا سيما في صنو فضلك من حكى أوصـافـك الشهم المهـذب قـاسم
والله نــسـأل أن يثيبـك رحمـة عـما صنعت بنـاثـر أو نـاظـم

ورثاه الشيخ توفيق البزرة بقصيدته التالية:

ملأ الطروس مـع الصدور علومـاً ومضى فـأضحى في الجنـان مقيـما
أودعـتهــا نــوراً فـنــاراً أعـجـزا أن يفصـلا أبـداً ولست ملومـا
أنى وأنت جمـال القـاسمي جمـال أهـل الشـام حلماً واسعـاً وعلومـا
طافت معارفك البلاد فكيف بالتفـ ـسير لـو طـاف البـلاد عمـوما
لم يـقــدروه بـنـشــره ولــو أنهم فعلوا لكـان النفـع فيه عميـما[1]

---

(١) طبع بإشراف شيخنا العلامة بهجة البيطار رحمه الله.

فسيعلمون حياتك العليا بما أورثت من فضل يدوم سليما
وسننت من طرق المكارم والتقى هدياً يخلد بعدك التنظيما
إن المنية لا تجاوز حدها فتغادر المجد العظيم رميما
فالعلم والإحسان والتقوى وما قدمت من خير يدوم عظيما
ولك الأيادي في التلاميذ الألى حملوا اجتهادك في الصدور مقيما
من فتية تبعوك في العليا فاتخذوا الفضائل في الشريعة سيما
بل كل من ذكروا مقامك في العلا عطفوا عليك وسلموا تسليما
فعليك من رحمات ربي رفرف إذ لم يزل بالمحسنين رحيما

ورثاه أخوه الدكتور صلاح الدين القاسمي بقصيدة جاء فيها:

ما لجو العلوم راجي الذيول أترى مال بدره للأفول
أم هوى نجمه وغار ضياه ودهاه الردى بليل طويل
فغدا الناس تائهين حيارى عن طريق بهديهم موصول
ما لهم قد عرتهم رعدة الخسو ف وباتوا حسرى بطرف كليل
وأقضت بهم مضاجعهم حز نأً وباتوا من الأسى في ذهول

* * *

حق للقوم أن يطيلوا عزاءه موجعاً حف بالبكا والعويل
فلقد فوجئوا بموت إمام كان في العلم آية للعقول
من إذا مشكل عرى في مهم قام يسعى لحله بالدليل
نال مجدين: مجد علم وأصل فسما كل ذي نجار أصيل
قد زكت نفسه بروض فنون هي غرس المعقول والمنقول
أطلعت أرضها زهواً فلما أينعت آل فرعها للذبول
تلك آثاره تعهدها الفكـ ـر فعاشت على ممر الفصول

* * *

كان يقضي النهار والليل بالدر س ويحيي الأسحار بالتهليل
قد أذابت حياته لوعة البحـ ـث فناب الضلوع داء النحول
لو تراه يسود بعد الـ ـفجر في جسمه الدقيق الهزيل
ذبلت عينه وخارت قواه تحت ضوء من الصباح ضئيل
يقظاً للعلوم والناس غرقى في بحور من السبات الطويل
قلت: إن الحياة هذي وإن الـ ـموت فيها عليه أهل الخمول
ولرمت الخلود للشيخ السا هر لولا تطلب المستحيل

* * *

ليت شعري ماذا جنى الشرق حتى أمطرته سحب الأسى بسيول
كلما أنجبت حناياه فذاً منشئاً بالغاً مدى التحصيل
ورجونا على يديه نهوضاً وصلاحاً لخلق هذا الجيل
عاجلته المنون كهلاً وأبقت ثلمة ما لسدها من سبيل
ما لها لا أبا لها تخطف العا لي وتبقي على السفيه السفيل
أترى أدركت بأن حياة الـ حر ليست إلا كعبء ثقيل
فأطارت روحاً سجينة جسم قد دعاه صعودها للنزول

* * *

وقد رثاه جورج حداد بقصيدة جاء فيها:

مات الإمام ابن الإما م العالم العلم النبيل
السيد السند الفقيـ ـه الكاتب الحبر الجليل
الصاحب الصبر الكثيـ ـر على التجمل بالقليل
من لو مشى مشت المها بة والجلالة في السبيل
أو خط شمت كواكباً أو فاه ذقت الزنجبيل
أو قام يعلو منبراً دفقت عيونك كالمسيل
درع العلوم وترسها وحسامها الماضي الصقيل
جم الفضائل والشما ئل مظهر الخلق الجميل
رب التصانيف التي بالفضل ليس لها عديل
فكأنما فلك هوى وكأنما جبل يميل
وكأنما للبعث قد أمر الخلائق بالرحيل
ولذاك دمع السحب من بعد الجفاف غدا يسيل
والنهر كدر ماؤه وهو الزلال السلسبيل
حزنت دمشق وحقها أن تحزن الزمن الطويل
لوفاة من بحياته لبست حلى الجد الأثيل
ومماته قد قطع الـ أكباد وتقطع الخليل[1]
لو ترتضي منا المنية بالفداء وبالبديل
كنا الفداء وإنما هيهات ذلك مستحيل

* * *

(١) هو الخليل بن أحمد واضع علم العروض وهو أول من قطع الشعر بحسب تفاعيله وتقويماً لأوزانه.

يا معشراً ساروا به بين التفجع والعويل
والشمس يبدو طرفها خلف الغمامة بالكليل
والريح تعصف والرعو د لها دوي مستطيل
والجو أقتم داكن والأرض في لون محيل
لا ترتجوا من بعده ما دامت الدنيا مثيل
إن الزمان وحقكم في كل نادرة بخيل

* * *

ورثاه تلميذه الشيخ بهجة البيطار بقصيدة جاء فيها:

ألا في سبيل الله ما نال شيخنا بدعوته وانتابه من متاعب
وأعجب من كل العجيب خصومه أفاعيلهم تقضي بكل العجائب
يسبون من للدين قد جاء ناصراً ويرمونه حمقاً بكل المثالب
وهذا هو الإسلام دين محمد أحاط به الأعداء من كل جانب
عليه لقد شدوا بفي مدارس وشدوا عليه بالقنا والقواضب
وهم يشهدون الطعن في دين أحمد وما منهم من غاضب أو معاتب
وتنظرهم ما بين كاس وطاعم وتشهدهم ما بين لاه ولاعب
فمن كان منهم غائباً مثل حاضر ومن كان منهم حاضراً مثل غائب
وليس لهم هم بغير رآسة وما همهم إلا صدور المناصب

* * *

سندفع عن أستاذنا طعن طاعن وندرأ عن أستاذنا إفك كاتب
فمن إذا عنه رددنا خصومه نكون قضينا نحوه بعض واجب
فيا أيها الأستاذ نم بسلامة وقلب ركين ثابت غير واجب
على ألسنة الفرا التي سننتها غداً كل فرد سالكاً غير هائب
عليك سلام الله ما ذر شارق ورحمته تنهل مثل السحائب

* * *

الفهرس